

رواية

نصف ساعة
أشياء لم تحدث

آدم جبريل المداني

نصف ملعقة
أشياء لم تحدث

الجزء الأول

آدم جبريل المداني

رواية

© جميع الحقوق محفوظة

كل الحقوق محفوظة للناشر، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر والكاتب.

لطلب نسخ ورقية من الرواية، يُرجى التواصل مباشرةً مع المؤلف.

البريد الإلكتروني: jebril@tuta.io

السوشيال ميديا: @adamjebrilelmadani

الطبعة الثانية 2026

ISBN: 978-9920-8581-4-4

الإيداع القانوني: 2025MO4747

تدقيق لغوي: إسلام احمد جاد

الشخصيات والأحداث الواردة في الرواية من وحي
الخيال، أي تشابه بينها وبين الواقع قد لا يظل مجرد صدفة.

"اعتقاد أن للحياة معنى، يمكنه توفير نفس راحة اعتقاد ألا معنى لها، المعاناة تجتاح من يستثمر في التخبط بينهما"

- كريم

إهداء

- إلى كل من يقرأ.



كُتبت هذه الرواية في إطار تحدٍّ لكتابة رواية كاملة خلال شهر واحد، لذا أرجو من القارئ العزيز أن يلتمس العذر في أي ثغرات بالحبكة أو عبارات مبتذلة، وألا يعزو سوى 50% فقط من ذلك إلى كوني كاتباً متواضع المستوى.

القمر

لا يبدو حارس بوابة المصنع متفاجئًا كثيرًا من منظر يوشيرو، حاملًا أغراضه داخل صندوق المغادرة الأبيض.

لكن مع اقتراب هذا الأخير من البوابة، أثارت ملامحه الجامدة اهتمام الحارس:

- ماذا فعلت هذه المرة؟

ليجيب يوشيرو بلهجة لم تخلُ من سخرية:

- لقد صنعت آلة تعمل عملي.

ثم خرج ببطء، يرمق البوابة الحديدية وهي تُغلق خلفه بنظرات مبهمة، كأنه يحاول استدعاء مشهد مسرحي يخرج فيه البطل من سجن لجريمة غير التي ارتكبها.

ألقى تحية الوداع على الحارس بإيماءة من رأسه، ثم اتجه مهرولًا نحو مركبته، المستديرة التي تطفو بنصف متر فوق الأرض دون عجلات. أخرج كتيبًا صغيرًا من درج بجانب المقود، ففاض الحماس عبر ابتسامته، ثم قاد مسرعًا نحو الشقة.

كان ينتظر ذلك اليوم بفارغ الصبر. وصل إلى منزله داخل مجمع سكني على سطح القمر مخصص لموظفي المصنع، دخل واستعد بسرعة، ثم تسرّع قبل أن يدركه الوقت. نزع ملابسه كلها واتجه إلى غرفته، أخرج السكين من صندوق خاص كان يخبئه بين أغراضه، وضعه تحت السرير، وجلس يقرأ في الكتيب، يعيد مراجعة التعليمات مع أنه يحفظها عن ظهر قلب، كأنه يسابق الزمن.

وضعه جانبًا وجلس ينتظر بهدوء، حتى اقترب الموعد، فعاد يقلب صفحات كتيب الإرشادات من جديد، يتمعن النظر في رسم توضيحي.

انتهى وأغلقه، ثم أخذ نفسًا عميقًا بينما يرفع يديه، وزفيرًا من فمه مُنْزِلًا يديه.

أخذ السكين الموضوع بجانبه وتلمّس صدره بأصابعه، يبحث عن حلمته، ثم وضع رأس السكين عليها.

بدأت أنفاسه في التسارع بينما يراقب ساعةً عددية معلقة على الحائط أمامه، ينتظر بلوغ الزمن المحدد، لكي يطعن قلبه، الذي تزداد دقاته ويعلو صوتها كقرع الطبول.

بدأ جسده يرتعش، فأمسك السكين بكلتا يديه بقوة، مستشعراً بعض الانزعاج من ضغط حدّته. عيناه الزائغتان يلوح داخلهما شبح جنونه، وشفته السفلى مختفية وراء ضغط أسنانه. غارق في صخب أفكاره، لا يكاد يستطيع سماع صوت طنين أنبوب الغاز الحيوي الملتصق بذراعه، الذي انطلق فجأة.

خارت قواه وسقط السكين من يده، ثم تمدد مستلقياً على ظهره مبتسمًا، ثم ضاحكًا، ثم بدأ يغني بصوت مرتفع، واستمر طربه لثلث الساعة، قبل أن يوقظه صداح هاتف الباب. وقف بخفة، ومسح اللعاب من فمه، وأخفى السكين بسرعة تحت خزانة قريبة من سريره، لكنه نسي الكتيب مرمياً على الأرض.

ضغط على بقعة حمراء في جانب السرير فتوقف الرنين وفتح الخط:

- يوشي، يوشي. افتح الباب.

أسرع في ارتداء سرواله، وبينما يمرر يده داخل قميصه، ضغط على زر في الحائط ليفتح باب المصعد في جانب من الشقة، تسللت منه امرأة.

"مايو"، تعمل في قسم إعادة تأهيل عائلات ضحايا الحرب في الجانب الآخر من القمر، امرأة في الأربعين من عمرها، شقراء البشرة، جميلة، ذات وجه متناسق كأنه مرسوم بفرجار، من ذلك النوع النادر من الجمال الذي يبدو كأنه سيبقى حتى لو سُلخ الجلد عن العظم. مكتنزة، لعوب، ذات حس فكاهي غامق، وغير حاسمة بشأن مشاعرها تجاه يوشيرو، رغم أنها لا تتردد في إظهار انجذابها له كلما سنحت الفرصة، وخصوصًا تحت تأثير أقل جرعة من أي شراب مخدر متاح.

تسللت كقطة بين أركان الشقة حتى وصلت إلى غرفته، حيث وجدته يتظاهر بالانشغال في ترتيب أغراضه. اقتربت منه من الخلف وهمّت بإفزاعه.

- سأغادر غدًا... إلى المريخ.

قالها يوشيرو بصوت محايد دون أن يلتفت، كأنه ألقى بقنبلة صغيرة في الغرفة.

تجمدت مايو في مكانها للحظة، تحاول استعادة توازنها بحركة مسرحية، ثم اعتدلت واقفة وتقدّمت نحو طبق حلوى على طاولة بجوار سريره، تناولت قطعة وضعتها في فمها، ثم رمت بأخرى نحوه.

في اللحظة ذاتها، دوى طنين منخفض في أرجاء الشقة، دام خمس ثوانٍ، أعقبه شعاع ليزر أحمر انتشر أفقيًا، ماسحًا المكان من الحائط إلى الحائط.

وقف يوشيرو ومايو، يواصلان الحديث رغم إزعاج الضوء الذي يمر على وجهيهما.

كان ذلك إجراءً تقليديًّا لاختبار استقرار مستوى الغاز الحيوي في أجساد سكان القمر.

- هل ستكونين بخير هنا؟ سنبقى على اتصال.

قال يوشيرو وهو لا يزال يطوي ملابسه.

أجابته مايو بنبرة طفولية تحاول إخفاء الحزن:

- طبعًا... لكن، ماذا حدث اليوم؟ هل فعلًا قدمت استقالتك؟
- أجل.
- لماذا؟ ظننتك تعشق العمل هنا. (ساخرة)

عوضًا عن الرد، غيّر يوشيرو مزاج الغرفة. جلس على حافة السرير، ونظر إليها بجدية:

- رأيت حلمًا الليلة الماضية يا مايو... حلمًا غريبًا.

- ماذا رأيت؟

سألت مايو، وقد اتخذت وضعية المعالجة النفسية وجلست على كرسي قبالته.

يجيب يوشيرو بملامح متسائلة:

- رأيت نفسي؟... كروبوت. آلة مشلولة ملقاة على أرض لا أستطيع الحراك فيها. وكانت هناك فتاة، تجلس أمامي، تبكي... تتحدث بلغة لم أفهمها.

أخذت مايو نفسًا عميقًا ثم قالت بنبرة تحليلية:

- يبدو أنك لم تأخذ حصتك اليومية.

رد يوشيرو وعيناه تتفحصان شيئًا آخر في ذهنه:

- آه... ربما.

- ما معنى هذا الحلم في رأيك، يوشي؟

- لا أعلم. ربما ليس غريبًا أن أحلم به في يوم تركت فيه عملي... لآلة. لكن الفتاة...

- وبماذا شعرت؟

سألته وهي تميل برأسها قليلًا.

نظر إليها يوشيرو وأجاب ببطء:

- بالعجز... كأنني ميت... لكن حي...

وبينما كان يهمّ بإتمام عبارته، لمح مايو تمد يدها نحو الكتيب الملقى على الأرض. أسرع ليأخذه منها لكنها منعته، وقد بدا التعجب في عينيها.

قرأت العنوان الكبير على الغلاف: "DIY"

قلبت بضع صفحات، لكنها لم تفهم شيئًا، فتساءلت:

- ما هذا؟

رد يوشيرو بلغة جسد مريبة، محاولًا التملص:

- لا شيء... كتيب قديم وجدته في مكتبة أبي.

فأعادت مايو النظر إلى الكتيّب، ووقعت عيناها على تاريخ الطبعة الحديثة: تاريخ يومهم نفسه.

أطالت النظر إلى يوشيرو بابتسامة ساخرة، كأنها تخبره أنها تعلم أنه يُخفي شيئًا ما، وسرعان ما تبددت ابتسامتها وراء إدراك أن هناك خَطبًا ما به.

هي تعرف يوشيرو منذ سنوات عديدة، بل صديقته الوحيدة على حد علمها، وتعرف معظم أسراره -أو على الأقل تلك التي لا يبذل مجهودا لإخفائها- فما هذا السر الجديد الذي لا تعرف عنه شيئًا سوى أنه يحاول إخفاءه؟

أحس يوشيرو عندها أنه ربما يُبالغ في رد فعله، لا يستحق الأمر كل هذا التكتُّم، فهو يثق في مايو بما يكفي ليبوح.

فجلس على سريره وبدأ في الشرح:

- أتتذكرين رحلة الشركة الأخيرة إلى المريخ؟
- نعم؟

تُجيب مايو بينما تستمر في تقليب صفحات الكتيّب، تركز مع ما تسمعه أكثر مما تراه.

- بعد انتهاء المهمة داخل المنجم، انفصلت مركبتي عن سرب الطاقم. لا أعرف ما الذي حدث بالضبط، لكنني فقدت السيطرة عليها فجأة، ووجدت نفسي أتوجه نحو سفينة المستشفى المهجور القديم... تعرفينه؟

تقاطعه مايو متعجبة:

- ألم تتخلص الفدرالية منه؟
- لا، ما زال هناك. دخلته وتجولت قليلًا في أركانه، ووجدت نفسي داخل قسم "إعادة التجسد". هناك وجدت الكتيّب فوق أحد المكاتب.

صمتت مايو لوهلة ثم سألت:

- متأكد؟ ألم تلاحظ تاريخ الطبعة الحديث؟

وأشارت إلى التاريخ في آخر الغلاف بحجم خط صغير، وأردفت بنبرة ممازحة:

- تقول إنك وجدته يوم رحلتنا إلى المريخ، وتاريخ الطبع يشير إلى اليوم؟ يوشي؟ توقف عن مزاحك السمج... مهما كان ما تُخفيه فسأعرفه. آمل فقط ألا يزجّ بك في مشاكل أنت في غنى عنها، أنت تعرف موقف الفدرالية ممن يحلم ويمتلك كتبًا غير مصرح بها.

ورمت الكتيّب نحوه، بينما هو غارق في عجبه من التاريخ الذي رآه لأول مرة، في تلك اللحظة رنّ جهاز حول معصم مايو. أطفأته وقالت:

- عليّ العودة إلى العمل. لا تُغادر قبل أن تودّعني.

قبّلت خده بينما يقاوم كعادته، وأسرعت خارجة.

استلقى هو على سريره، يقضم قطع الحلوى المتبقية ويفكر في حلمه المُقلق، ورفع الكتيّب يُحدّق في تاريخ طبعته ويعيد تقليب صفحاته لعله يكتشف شيئًا جديدًا... حتى غلبه النوم.

******

يوشيرو مهندس ميكاترونيكس في الثلاثينيات من عمره، يعمل لدى شركة مصنّعة للآلات والروبوتات الحربية مقرها على سطح القمر. كان يمارس حياته المهنية بتهوّرٍ مفتعل، آمنٍ خلف تأمين رعاية لم يكن ممتنًّا لها، رعايةٍ صنعتها هيبة أبيه "يامادا"، المخترع العبقري الذي صمّم روبوت "المحارب" -منتج الشركة الأشهر والأكثر مبيعًا- الذي أخرجها من مياه المنافسة الضحلة إلى السباحة مع كبار المصنعين في المنطقة الصناعية على القمر، لتُصبح المموّل الحصري للمجلس الفدرالي الحربي.

يوشيرو كان يحب ما يفعل، لكنه يكره عمله، ولطالما فضّل أن يُطرَد منه عِوَضَ أن يستقيل؛ ربما كان يعدّ الاستقالة هزيمةً وهروبًا. الشيء الذي جعله دائم الاختبار لصبر مديريه على هفواته الهزلية واختراقاته الأمنية المتكررة التي أحرجت سمعة النظام الداخلي.

طُرِدَ وأُرْجِعَ أكثر من مرة، وكانت تلك طريقته -ربما- في الاحتجاج على معاملتهم له كأنه ليس سوى "ابن يامادا"، ربما جعلوه يشعر أن نجمه لن يسطع تحت ظل والده.

مرّ على عمل يوشيرو في القمر أعوامٌ معدودة، وجد نفسه في آخرها يمضي ساعات فراغه في تطوير برنامج يُنجز عمله الروتيني ذاته.

نجح في ذلك، وقدّمه مع استقالته عرضًا مجانيًّا إلى الإدارة التي لم تستطع سوى تقبّله.

هكذا ابتلع الهزيمة، فقط لأنه انتصر على نفسه.

لم يكن ذلك آخر يوم ليوشيرو على سطح القمر فحسب، بل كاد أن يكون آخر يوم له على قيد الحياة أيضًا.

فما لم يذكره لمايو في شرحه لمصدر الكتيّب الغريب، هو أنه لم يفقد السيطرة على المركبة كما ادّعى، بل ظهر له ما يُشبه أُخطبوطًا طائرًا، رمادي اللون، يسبح في الفضاء متجهًا نحو المستشفى المهجور، ولم يُقاوِم يوشيرو فضول اللحاق به.

لم يُخبر مايو بذلك، لأنه من المعروف أن رؤية الكائن الرمادي تتطلّب زيارةً مستعجلة إلى قسم العلاج النفسي.

وآخر شيء قد يرغب يوشيرو في فعله بعد تخليه عن العمل، هو قضاء شهر من الاختبارات والفحوصات والتدريبات الإجبارية هناك.

******

المستشفى الذي وجد فيه يوشيرو الكتيّب، هو سفينة فضائية قديمة، ابتدأ عملها رسميًا سنة 2178، أما قسم "إعادة التجسد" بداخلها، فتأخر افتتاحه لعشر سنوات، بسبب ضغطٍ مستمر من نقابة علماء الوعي، احتجاجًا على إصرار سياسي من لوبي فدرالي لخصخصة القسم، وذلك ما حصل بالفعل عند افتتاحه، فضرب ذلك جهود العلماء ونُبل مهمتهم عرض الحائط.

بعد افتتاح القسم، تلت ذلك حملات إشهارية مكثفة وملحّة، تشرح تكنولوجيا "إعادة التجسد"، التي كانت تُعد ظاهرة طبيعية آنذاك، تتجسّد خارج المجموعة الشمسية، في كواكب وأبعاد أخرى، حتى داخل مصفوفات رقمية، وتستهدف مستهلكين للخدمة، مقابل مبالغ مالية سريالية.

لم تكن تلك أولى المنتجات التجارية التي تستغل ظواهر وعي الإنسان الجديدة المكتشفة آنذاك؛ فقد ظهرت قبلها شركات "استنساخ روحي" على الأرض، تبيع الخلود على شكل اشتراكات شهرية مدفوعة، تنقل الوعي من وعاءٍ لآخر، مع إمكانية اختيار خصائص إضافية لجسدك الجديد:

عيون ترى في الظلام، خياشيم، أجنحة، اتصال مباشر بالإنترنت، نظام جنسي ثنائي... أي شيء قد يجعلك تدفع أكثر.

لكن قسم إعادة التجسد، كان من المفترض أن يكون مجانيًا، وذا هدف نبيل. فرغم تطوّر الوضع البشري آنذاك، وانكشاف عديد من ألغاز الوجود التي كانت ثقيلةً بالرموز في زمنٍ ما، واكتشاف طُرق جديدة لضمان سعادة الإنسان وراحته، ظلت المعاناة.

كأن البشر لا يصنع سوى ما يجعله يعاني بطريقة مختلفة عن ذي قبل. فأصبح حلم الناس هو الهجرة، الهجرة من عالمهم المعتاد إلى عالمٍ أفضل.

هذا الحلم، في الحقيقة، نبتت بذرته مع الأجيال التي عاشت أحداث سنة 2040، وتفتّحت تفتحا كاملًا مع أول جيل في بداية القرن الثاني والعشرين، حين اكتشف العالم أن القيامة التي قامت أثناء تلك الأحداث المزعومة لم تكن حقيقية، وأن المسيح الذي ظهر لم يكن سوى دجّال.

كانت هنالك طرق نظامية للهجرة، تحت رعاية الفدرالية وشركاتها، وكان هناك أيضًا طرق هجرة غير شرعية، باستعمال طقوس غريبة ومزيّفة، في معظم الحالات مدسوسة من طرف الفدرالية لتُبعد الناس عمّا ينافسها.

لكن الطريقة التي كان سيذهب يوشيرو ضحيتها، لولا تدخل الغاز الحيوي، كانت مختلفة تمامًا. الغاز مضاد، وضعت الفدرالية داخله

مواد تُضَخّ مباشرة إلى الدماغ كلّما التقطت مستشعرات الأنبوبة إشارات نوبات توتر أو هلع أو اكتئاب قد يؤدي إلى محاولة الانتحار.

تمت إضافة هذه الخاصية بعد انتهاء الحرب، وبعد حصول حالات انتحار في صفوف كثير من المجندين المصابين باضطراب ما بعد الصدمة. يوشيرو يعرف هذا طبعًا، بل مرّت عليه أوقات كان يحاول فيها خداع نظام هذه الخاصية، فقط ليحظى بجرعة مجانية من السعادة.

كان الغرض من قسم إعادة التجسّد -مشروعًا عالميًا- هو منح وعي المواطن المقهور في القرن الثاني والعشرين الفرصة لاختبار ما دون القهر، بما أن ذلك كان هاجس الأغلبية العظمى لسكان الأرض آنذاك.

كان مشروعًا نبيلًا في ظاهره، شارك فيه علماء وتقنيون من مختلف القوميات والبلدان، أو كما سُميت حينها "الولايات"، تيمُّنًا بالنظام الأمريكي القديم الذي وسّع صلاحيات حكمه ليشمل معظم الدول، تحت إشراف النظام الفدرالي، أو كما كان يحب أن يدعو نفسه: النظام العالمي الجديد.

تمكن قسم إعادة التجسّد من اكتشاف ثغرة داخل مصفوفة التقمّص، باستعمال خدعة قديمة تُدعى "حصان طروادة"، حيث تحاط حزمة المعلومات الكمية التي تشكّل وعي الفرد وغشاء فردانيته بمجال تذبذبي عالي التردد، يُحاكي تردد عوالم أخرى، لتُقْذَف الحزمة نحو ثقب أسود، في أوقات فلكية وظروف خاصة.

لكن، لسوء -أو ربما لحسن- الحظ، لم يتسنّ سوى لأربعة أشخاص تجربتها. ففي سنة انطلاق القسم نفسها، حصل ذلك الهجوم الإرهابي المروّع الذي سُمّي (11/11) نسبة لتاريخ حدوثه في اليوم الحادي عشر من الشهر الحادي عشر، فزعزع كيان الأرض، واختفى على إثره مئات الملايين من البشر.

وتلَا ذلك الهجوم حربٌ عالمية ضروس، شارك في معاركها، دون قصد أو إدراك حتى مساكين القبائل المعزولة النائية، الذين لم يكونوا يُدركون حتى أنهم لا يعيشون وحدهم فوق الأرض.

لكن، رغم الحرب، بدأت البشرية تحبو عبرها نحو البقاء.

وكان ذلك سريعًا نوعًا ما، بفضل الذكاء الاصطناعي، والآلات، والتكنولوجيا المتطورة المتبقية، رغم دمار معظم ما وصل إليه واكتشفه العلماء إلى ذلك الوقت.

ثم يُشاع أحيانًا بين الناجين - وهي بروباغاندا أطلقها الحلف القديم قبل رحيله - أن جنسًا فضائيًا يُسمى "الأكتوريانز" زار الأرض في تلك المرحلة الحرجة، وقدم المساعدة، وظهر في آخر المطاف حلف عالمي جديد سُمّي بـ"فدرالية القمر"، وأقيمت أساساته التكنوقراطية على حطام النظام الفيدرالي العالمي القديم، على يد نفس البنّائين من أحفاد السلالات والعائلات اليسوعية والشبتائية الفرانكية نفسها التي بنت وحطّمت النظام القديم، ونُقِلَت فئة من البشر إلى مدن على المريخ، الذي كان يدور في نفس مدار كوكب الأرض، وفئة أخرى على القمر، وفئة استمرت على الأرض.

اغتيل والد يوشيرو على الأرض في آخر أيام الحرب العالمية، واختفت أمه كذلك في ظروف غامضة في أحد هجمات فدرالية القمر على المريخ، وكان هذا قبل عشر سنوات من تاريخ تعيين يوشيرو موظفًا في المصنع نفسه الذي كان يشتغل فيه أبوه.

بعد أن وضعت الحرب أوزارها على الأرض، جاء دور تراب المريخ ليذوق هو الآخر دم البشر. قلة فقط تعرف سبب اندلاع تلك المعارك المفاجئة التي شنتها فدرالية القمر على سكان المريخ، وكل طرف يصوغ حقيقة تناسب روايته الخاصة، أما من يعرف السبب الحقيقي فعلًا، فهو يدرك أن معرفة ذلك لا تهم، لأن الحرب عجلة سببية ذاتية، تولّد أسباب استمرارها أثناء استمرارها، حتى تُنسي الجميع لِمَ وكيف بدأت. سكان القمر لا يتعدى تعدادهم سبعة عشر ألف نسمة، أقل من واحد في المائة منهم نخبة العائلات التي كانت تسكن الأرض، والبقية أعضاء المجلس الفدرالي، وعمال شركة تصنيع الروبوتات حيث كان يعمل يوشيرو، وعائلاتهم.

يعدّ سكان القمر يامادا بطلًا قوميًا، فدونه ودون الروبوت المحارب من تصميمه، ما كانت الفدرالية لتربح آخر معركة حاسمة وتُخضع سكان المريخ.

أما يوشيرو، فهو لا يفرّق أحيانًا بين أبيه والآلات التي يصنع. لم يكن متعاطفًا مع سكان المريخ وحسب، بل كان يمقت الحرب بطريقة طفولية مهما كانت دوافعها، شعور صرّح به بكل وضوح في نفس يوم مقابلة عمله، عندما حاولوا إغراءه بالانضمام إلى السفن الحربية الفضائية للانتقام لأبيه.

فرغم جودة البروباغندا والبرمجة النفسية التي كانت تستخدمها الفدرالية على سكان القمر، لم يتوقف أبدًا ذلك الصوت الخافت الواهن داخله، الذي يخبره أن كل شيء ليس فعلًا على ما يرام.

******

استيقظ يوشيرو في اليوم التالي، وكان أول شيء فعله بعد فرك عينيه وتذكر ما حصل البارحة هو صفع خده، مكتشفًا أخيرًا مدى سذاجة اندفاعه. لم يجد مبررًا سوى الغباء وثقة صمّاء في كتيّب وجده داخل سفينة فضاء مهجورة، غير مضمونة نتائج تطبيق تعاليمه.

ثم انهمك في جمع حاجياته وترتيبها استعدادًا للرحيل، تجوّل قليلًا في أرجاء الشقة، إلى أن وصل إلى غرفة تتوسطها كبسولة صغيرة على شكل منزل، مركونة جانب الحائط. شكلها بيضاوي جميل، بلون أبيض، بها نافذة دائرية صغيرة على كل جانب، وباب مفتوح على سلّم صغير يصل إلى الأرضية. وكان يرتفع فوق الكبسولة لاقط هوائي.

كان يوسف يعيش داخلها لبعض الأسابيع، قبل أن يختفي فجأة في نفس الشهر الذي قُتل فيه يامادا.

سافر يوشيرو بعينيه داخل الكبسولة، ليقع بصره على شيء ناتئ تحت السرير لم ينتبه له من قبل. تقدم ورفعه، ثم أخرج ما بدا ثَوْبًا رماديًّا ليّنًا براقًا، يشبه قطعة فلّين، لكن أكثر ثقلًا ومرونة. قلّبه بين يديه وشمّه، لم يعرف ما هو، ولم يكن مستعدًا للتخمين. فوضعه مع حاجياته، ووقع في باله فجأة كتيّب "DIY"، فبحث

عنه حتى وجده، ثم وضعه في جيب داخل صدرية سترته، واستمر فيما كان يفعله. أمضى يوسف معظم حياته على سطح الأرض. كان حاكمًا لأحد البلدان الناجية من الإعصار الكبير هناك. خاضت بلاده كثيرًا من الحروب والتحديات في الحرب العالمية، وبعدما وصلته أخبار مقتل زوجته وابنته في هجوم مباغت، عشش داخله حزن عظيم، فقرّر الهروب من الأرض التي أصبحت تؤلمه كل خطوة يخطوها عليها، تذكّره بغياب أحبّائه. فلجأ إلى القمر، وعمل لدى الفدرالية، حيث التقى بوالد يوشيرو، يامادا.

يوسف رجل في الخمسينيات من عمره، لا يتكلم كثيرًا، ذو لحية كثيفة، طويل القامة وقوي البنية. يمكن من مشيته أن تعرف أنه فقد ذراعه اليمنى المبتورة التي حلت محلها ذراع آلية قديمة الطراز. كما يمكن من عينيه أن تشعر أنه فقد أكثر من ذلك.

عندما سمع بموت والد يوشيرو، أخذ إجازة من عمله مستشارًا حربيًّا، وجاء بلهفة مريبة إلى منزل يامادا، وبقي هناك داخل الكبسولة لأسبوعين، ثم اختفى.

انتهى يوشيرو من التنقيب عن أشيائه وترتيبها، وارتدى بذلته الفضائية، ثم خرج من المركب السكني إلى سطح القمر. أراد أن يتجوّل قليلًا قبل أن يغادره، فقد تكون هذه آخر مرة يمشي فوقه.

لم يعد يشكل له المشي فوق سطح القمر تحديًا كما كان، بفضل بذلة خاصة قدمتها له مايو في عيد ميلاده.

وقف فوق هضبة صغيرة، رافعًا بصره إلى الأعلى ينظر إلى كوكب الأرض عبر القبة الهائلة الشفافة التي تحيط بالمصنع، يبدو كوكبًا مظلمًا، يتخيل ما يحصل فوقه، كيف أن من تبقى من البشر هناك يفضلون الاستمرار في القتال كل هذا الوقت.

هذا أكثر شيء لا يمانع يوشيرو أن يصدقه، رغم أن مصدره فقط تلك النشرات الفدرالية الإخبارية، أن سبب ترك من في الأرض فيها هو هَوَسُهُمْ بالدم وفوات أوان إنقاذهم.

كان يوشيرو في بداية شبابه متأثرًا بفكر أحد الفلاسفة الكبار المعاصرين له، وكان يرجع لذلك الفيلسوف فضل إنشاء دستور إنساني عالمي جديد، ينصف على حد اعتقاده اكتشافات علماء الوعي الجديدة، لكن رغم ذكاء يوشيرو وجنون ارتيابه، إلا أنه كان يتأثر بعمق بمن يتأثر بهم بسرعة.

لطالما ظن يوشيرو أن حقيقته لا تبرز سوى عندما يفقد السيطرة على نفسه، هناك، وراء كواليس عقله، ولهذا كان يحرص على التهور كلما سنحت له فرصة ذلك، ليلتقي بنفسه.

كان فيما مضى يؤمن أن استمرار الحروب بدروسها، لا يعني سوى استمرار احتياج الإنسان إليها، وهذه في الحقيقة كانت مجرد تأملات لأحد تلامذة الفيلسوف الذي كان معجبًا به، شيع فكرية أكاديمية استعملتها الفدرالية لصنع ثقافة عامة موالية للحروب، ولا تتذمر حول صرف الأموال في صناعة الأسلحة، ثم اختراع حروب ومناوشات لتجربتها.

أسدل يوشيرو ستار ذلك المشهد المحزن، وأغمض عينيه يبحث عن صور تختبئ وراء أجفانه، فيرى أمه تقف أمام نافذة منزلهم القديم على المريخ، تبتسم وتلوح له.

دائمًا ما كان يستمتع بالتفكير في أمه، رغم أنه لا يدرك تمامًا إن كانت تلك الصور من ذاكرته أو وحي خياله، إلا أنها تخبئ دفئًا لا يقدر على حرمان نفسه منه، فهذا كل ما تبقى له منها، صور في ذهنه.

فتح يوشيرو عينيه فجأة، منتبهًا إلى حركة شيء رمادي رخو ينساب بين الحجارة بجانب رجليه، يتحرك مبتعدًا عنه بسرعة، حتى اختفى في اتجاه هيكل مركبة حربية مهجورة تبعد عنه ببضعة دقائق، تبدو المركبة محاربًا متقاعدًا ضائعًا في الزمن، مستلقيًا على شاطئ يلفظ آخر أنفاسه. نزل يوشيرو من فوق الهضبة واتجه نحوها، وتسلق المركبة فوجد نفسه بجانب فوهة مظلمة تبدو جرحًا غائرًا، وبدون تردد وبكل إخلاص لطبعه هبط متشبثًا بكل ما يجد في طريقه، نسي شأن الشيء المتحرك بقدر ما اهتم حصريًا بالمركبة.

وجد سلمًا وبدأ ينزل عليه، فقط ليكتشف أن أبعادها كما رآها من الخارج لا توافق عمق السلم.

استمر هبوطه مدة أطول مما توقع، ساوره شعور أنه يفعل شيئًا لا يجب أن يفعله لكن ذلك لم يشجعه سوى على الاستمرار.

وصل إلى سطح صلب، فترك السلم بحذر ووقف يتفحص الحائط الدائري الحديدي الذي يشبه جدار بئر، لتقع يده على مقبض باب. انتابه لوهلة إحساس غريب، جلطة قلبية ردَّ فعلٍ حساسية تجاه غبار نبش ذاكرة طفولة، لم يلمس مقبض باب كلاسيكي مثل هذا منذ مغادرته المريخ.

فتحه ببطء ودخل ليجد نفسه داخل ممر مضيء بمصباح أحمر ويؤدي إلى باب آخر.

أغلق الباب الأول من تلقاء نفسه بقوة، وسار يوشيرو في الممر بتريث بينما يستمع إلى صوت موسيقى يرتفع تدريجيًا كلما اقترب، لم يجد في الباب الثاني مقبضًا فألصق أذنه عليه يختلس السمع أكثر.

فجأة، فُتِحَ الباب وامتدت يد غريبة من الداخل وجرت يوشيرو وأغلقت الباب بسرعة.

- مايو!!

- يوشي!!

حدقا في بعضهما لثلاث ثوانٍ قبل أن يتعجب يوشيرو وهو يلف ببصره في المكان:

- ماذا تفعلين هنا؟

ابتسمت، لم تجبه، أخذت يده تحاول الرقص معه بسخرية.

أزال خوذته ورتب شعره بيده، ثم انتقلت عيناه في الأرجاء يتفحص المكان جيدًا.

يبدو أنه داخل ذلك الملهى الليلي السري الذي حكى له عنه زميل في العمل ذات مرةً، لكنه لم يذكر رائحة العرق والكحول والعطر الرخيص المنتشرة في الأرجاء، والكل يرقص كأنه آخر يوم لهم في الدنيا.

- كان بإمكانك على الأقل إخباري بمكان هكذا.

يسأل يوشيرو ثم يسترسل:

- كل هذه السنين وأكتشف...

لم تتركه مايو يكمل تذمره:

- تعال... تعال...

وهي تسحبه لتسبح به بين الحشد الراقص نحو طاولة نصف دائرية يجلس عليها ثلاثة رجال وفتاة تستلقي في حضن أحدهم.

- من هذا الغريب الذي يجرؤ على دعوة نفسه لمائدتي؟

يسأل أحد الثلاثة دون أن يبدي انطباعًا أنه يهتم فعلًا لسماع الإجابة، موحيًا أنه من النوع الذي يحب إثارة إعجاب الغرباء.

فتجيب مايو بصوت جذاب:

- سيدتي سادتي، أقدم لكم (تشير بكلتا يديها)، يوشي.

تترك الفتاة دفء حضن رفيقها وتجلس معتدلة وهي تعلق وتتفحصه بنظرتها:

- آها!! يوشيرو! كريستينا حكت لنا كثيرًا عنك.

يجيب يوشيرو متسائلًا وهو مستغرب من الاسم الذي دُعيت مايو به للتو، ينظر إليها وهي ترسم على وجهها ابتسامة كرتونية مضحكة:

- كريستينا؟

فدفعته مايو ليجلس بينما تهمس في أذنه: "إنها قصة طويلة"، وأخذت مكانها بجانبه.

مدت يدها لعلبة موضوعة وسط المائدة وأخرجت منها قرصًا صغيرًا أبيض يشبه أقرص الدواء الفوارة، أرته إياه:

- ويسكي؟

ثم صبت ماءً في كأس ورمت القرص داخله.

تعجب يوشيرو من ذلك، فأقراص الكحول ممنوعة على القمر، ثم أمسكه من يدها على مضض وشربه بسرعة مزعجة أضحكت مايو، التي تحمست فورًا وانطلقت تقدم أصدقاءها له. تشير إلى الفتاة:

- قطعة الحلوى هذه على يسارك اسمها إيتا، تعاني من الفصام لكنها تجيد شيئًا أكثر من إخفاء ذلك، وهو الرجوع مرارًا وتكرارًا إلى حبيبها.

تشير بأعينها إلى الرجل بجانب إيتا، وتسترسل:

- ميمون، عسكري سابق، طُرِد بسبب تخلفه العقلي.

فانفجر الرجل إلى جانب ميمون بالضحك عندها، وأردفت مايو بينما يبتسم يوشيرو بهدوء:

- وبالحديث عن الإعاقة الذهنية.

تشير إلى الرجل الذي يجمع أنفاسه من الضحك ويمد يده ليسلّم على يوشيرو بتحية جادة فجأة لا تلائم ضحكته:

- سررت بلقائك يا يوشيرو، اسمي سيباستيان.

واسترسلت مايو:

- والنائم هناك هو يوسف، أنت تعرف يوسف.

لم يسمع ذلك بسبب ارتفاع صوت الموسيقى المفاجئ، واقتربت مايو من أذن يوشيرو تصيح:

- كيف تعرف هذا المكان؟ هل أتيت إلى هنا من قبل؟

- لا، كنت أتجول في الخارج، ورأيت المركبة.
- هل ستعود للقمر يومًا ما؟
- لا أعرف.
- ستسافر إلى المريخ أم الفندق؟

انخفض صوت الموسيقى فجأة، وارتفع صياح يوشيرو مجيباً:

- سأذهب إلى المريخ.

فإذا بشخص غريب يرتدي قبعة راعي غنم يجلس في آخر ركن في الملهى، يمنع وصول كأسه إلى فمه فقط ليدير رأسه نحو مصدر الصوت، ينظر إلى يوشيرو، ثم يتسلل ليقترب منه ويسترق السمع لمحادثتهم.

رجعت الموسيقى بهدوء، واستيقظ عندها يوسف يبحث عن أقرب كأس شراب، أخذ كأس سيباستيان من أمامه، ثم دار بعينيه يتفحص الجالسين، وقال بصوت نائم غليظ:

- من الذي سيسافر إلى المريخ؟

ثم استقرت عيناه على وجه يوشيرو الذي انعكس ضوء المكان عليه بما يكفي ليبدو نسخةً طبق الأصل من أبيه. اتسعت أعين يوسف وسرحت في يوشيرو قبل أن يوقظه صوت هذا الأخير:

- يوسف.

يجيبه يوسف مستغربًا:

- يوشيرو؟ ماذا تفعل هنا؟

واستمر الاثنان يحدقان في بعضهما، ثم تستمر الجلسة.

شرب يوسف أكثر من المعتاد، بدليل سؤاله عن أحوال يوشيرو كل بضع دقائق. استوطنته فجأة مدة من الصمت تشي باقتراب مدة من البوح، تبدأ عادة بسخرية من ملابس أحد المارين بجانب المائدة، يليها تعليق على وضع سكان القمر، ثم تأمل في الوضع البشري بأسره. بدأ يتحدث يوسف كثيرًا، لوحده، لكن البقية كلهم آذان.

وهكذا حتى وصل يوسف بحكيه السكران إلى موضوع الحرب.

متوجهًا إلى يوشيرو بينما يغمس كلامه في جرعات صغيرة من الخمر:

- أتعرف يا بني... كل هذا الهراء... بدأ بسبب شخص واحد... عالم... لم تحضنه أمه بما يكفي في صغره... ليضطر أن يبرر للعالم أنه يستحق الحب... عبر صنع ثقب أسود بحجم الفراغ داخل قلبه.

شرب ما تبقى في كأسه واسترسل بصوته التعب:

- ولسوء حظ هذا العالم... كان هناك... أب لعين... في مكان آخر على الأرض... حضن ابنه بالطريقة الغلط... بينما أمه... منشغلة بحقن مؤخرتها بالمخدرات... ورموا الوغد إلى ركن في شارع... وشاخ... ليصبح قائدًا أخبره الرب... أن خلاص البشرية من الشر لا يكمن سوى... في تفجير... مختبر... مختبر من؟ مختبر العالم الذي أخبرتك عنه في الأول... تتذكره يا يوشيرو؟ يجيب يوشيرو برأسه موافقًا، قبل أن يسترسل يوسف:

- ذاك... الذي حاول صنع ثقب أسود.

ضحك قليلًا وتوقف، ثم أخذ نفسًا واستمر بينما ترتخي أجفانه كأنه يغني تهويدة نوم:

- كلاب... كان العالم ليكون مكانًا أفضل... لو فقط توقف الناس عن محاولة جعله كذلك.

كل ساكني القمر يعرفون هذه الحكاية، لكن ليس تمامًا كما حكاها يوسف، رغم أنه عبر التدقيق في التاريخ الشخصي للعناصر المعنية، وبالاستغناء عن إسقاطاته العاطفية، يمكن عد وصفه منصفًا نوعًا ما.

يُذَكَّر ساكنو القمر، حتى أغلب المستوطنات في المريخ بعد الاحتلال بهذه القصة كل سنة.

في الشركة التي كان يعمل فيها يوشيرو، كان يحدث ذلك بفيلم دعائي يُشَغَّل على شاشة كبيرة داخل القاعة المغطاة قبل الاحتفال بذكرى إنشاء الفيدرالية، ولم يكن فيلمًا مملًا بسبب طوله، بقدر ما كان يكره المتفرجون الموسيقى التصويرية التي ترافقه.

يبدأ الفيلم بنبذة قصيرة عن الشركة الحاكمة، وعلاقتها الوطيدة بالأكتوريين، الكائنات غير الإنسانية التي يُزعم أنها أنقذت سكان الأرض من الاختفاء أثناء ظاهرة إعادة الضبط في زمن ما، ويحكى أنها ساعدتهم عبر دفع المريخ إلى النطاق الصالح للحياة الذي تدور فيه الأرض، وتسريع تطور الحياة على المريخ لتمكينهم من العيش فوقه في أقرب وقت، وكل هذا في عقد من الزمن.

ثم ينتقل الفيلم إلى وصف ما حدث للأرض، وتذكيرهم بالعمل الإرهابي، وتفجير مختبر مانهاتن الذي أدى إلى زعزعة البنية التحتية للمجموعة الشمسية بكاملها.

ثم ينتقل إلى صور وأرشيف أعمال الفدرالية الخيرية، من مساعدة الناجين على الأرض ونقلهم إلى مجمعات سكنية على المريخ وكذا، ويصل إلى عرض يشرح المناوشات الحربية مع سكان المريخ وكيف أنهم سبب المشكل، ثم ينتهي بخطاب لأحد كبار أعضاء الفدرالية، يثني فيه على شركة صناعة الروبوتات، يتخلله تهليل وتصفيق من طرف العاملين المشاهدين.

يجلس يوشيرو بهدوء وبقليل من التبلد بسبب القرص الذي شربه، يفكر في كيف لا يقف بينه وبين معرفة المزيد من الأسرار سوى كأس خمر آخر في يد يوسف، فملأ كأسًا أخرى وسأله قبل أن ينتهي من صبها:

- ماذا عن المريخ؟ لماذا الحرب معهم؟

فيجيب يوسف قبل أن يشرب:

- المريخ ليس سوى فكرة فاشلة... (يضحك)... ماذا أخبرتكم الفيدرالية؟

يبدو فجأة على محيا سيباستيان بعض القلق.

يشرب يوسف ويكمل:

- أننا أنقذنا كل من نستطيع إنقاذه من الأرض؟ (يضحك بصعوبة)... أتعرف من كان يقود سكان المريخ؟ "الأركاين"... المختارون الحقيقيون...

قاطعه سيباستيان فجأة بأخذ كأس الشراب من يده، محاولة فاشلة من طرفه لإلهائه عن لحظة بوح خطيرة داخل ملهى ليلي، غير بعيد عن رجل غريب يسترق السمع.

لكن يوسف يستمر في الكلام بصوته الخشن الثمل كأنه يحاول إفحام شخص ما:

- وما لم تأخذه الفيدرالية في الحسبان... وهم لا يأخذون عادة سوى ما يكفي في الحسبان... هو أن هؤلاء المختارين... لا تعجبهم كثيرًا فكرة المختارين... يريدون إنقاذ باقي البشر على الأرض الذين تركتهم الفدرالية لتصفية بعضهم بعضًا... وهذا... هو سبب المناوشات معهم... لمنع...

ثم انطلقت الموسيقى الصاخبة مجددًا، مقاطعة بوح يوسف وتوقظ الحماس في البقية، فانتفضت مايو صارخة:

- وووووو... أغنيتي المفضلة!

جرت يوشيرو إلى مكان الرقص، ليلحق بهم كل من إيتا وميمون، وبقي سيباستيان يتحدث مع يوسف، ويوشيرو من بعيد يلاحظ كيف يخاطب سيباستيان يوسف كأنه يعاتبه.

استمتع يوشيرو بوقته أكثر مما كان معتادًا عليه. ما كان ليريد أو يستحق حفلة وداع أروع من تلك الليلة، التي انتهت بمغادرة مايو معه إلى شقته.

ضحكا هناك أكثر، ورقصا مخمورَين، ثم قعدا على مائدة المطبخ يتحدثان بينما يشرب يوشيرو قهوة مضادة للسُّكْر، تجنبًا للمتاعب في سفره مع إدارة الحدود، خاصةً وأنه هو من سيقود رحلته.

ابتدأ يوشيرو تدريجيًا في استعادة كامل وعيه، حينها تذكّر يوسف في الملهى، وتذكّر حديثه، فسأل مايو:

- أين اختفى يوسف كل هذه المدة؟ وما علاقته بك؟ ومن أصدقاؤك المثيرون للاهتمام؟

مدّت مايو يدها إلى قنينة القهوة وسكبت كأسًا لها قائلة:

- يجب أن أستيقظ أولًا لأسئلتك.

وبينما ترتشف كوبها:

- لم أكن أعرف يوسف من قبل، ولا يعرفه من الأصدقاء سوى سيباستيان. هو الذي أخبرني أنه كان يسكن في شقتك في وقت ما، وأنه صديق عائلتك. لا أعرف أين اختفى، لكن يمكن أن أُحزر لماذا.

- لماذا؟

يسأل يوشيرو بفضول.

- حسب ما قال سيباستيان، فمنذ وفاة أبيك، ويوسف يظن أن هناك أشخاصًا يريدون النيل منه. لهذا ترك عمله وظل يختبئ هنا وهناك."

صمت يوشيرو قليلًا، ثم أردف ممازحًا:

- وما قصة كريستينا؟ لا يبدو أن إيستا هي الوحيدة التي تعاني من الفصام.

ابتسمت مايو وتنهدت:

- لا قصة خلف ذلك، مجرد اسم يعجبني أن يدعوني به زملاء العمل.

- همم، هم أصدقاء عمل إذًا.

تنتبه مايو لما قالت كأنها أفشت سرًا، ثم تجيب محاولة تغيير الموضوع:

- واسمها إيتا، ليس إيستا. لكن ألم تستغرب قصة يوسف؟

- تقصدين كيف أنه مختبئ لأن شخصًا ما يحاول قتله؟ لا أعرف، ربما بدا لي ذلك عاديًا بسبب كثرة قصص مغامراته التي كان يحكيها لي أبي عنه في الطفولة، أو يحيكها عندما تنضب ذاكرته.

تبتسم مايو بعينيها، ثم ترشف من الكوب وتقول:

- إيتا المسكينة، فقدت كل عائلتها على الأرض. عانت كثيرًا قبل وصولها للوحدة حيث أعمل.

سرحت لوهلة، ثم نظرت إلى يوشيرو. تحرك فمها لتقول شيئًا ثم تراجعت، ثم تستمر في النظر إليه وهو يشرب كأسه، ثم تقول:

- سأخبرك بسر! جعلتني إيتا أقسم ألا أخبر أحدًا، لذا عليك أن تقسم لي بالمثل قبل أن أفعل.

- ليس علي فعل شيء، لا تخبريني.

يجيب يوشيرو ممازحًا، ثم يضع يده فوق صدره:

- أقسم أن آخذه للقبر، ما هو؟

فهمست:

- إيتا وسيطة، من الأركاين.

ارتفعت حواجب يوشيرو من الدهشة، واقترب من المائدة:

- تمزحين؟ تمزحين... ظننت أنهم أُبيدوا جميعًا.

- أجل، الكل يعتقد ذلك. أتعرف ماذا أيضًا؟! ما زال هناك وسيطات، ما تزال قبائل كاملة من الأركاين على قيد الحياة... لكن على الأرض.

ذُهل يوشيرو، ثم صمت، يحرك كأسه في دوائر فوق المائدة وهو ينظر إلى مايو، التي تفرغ ما تبقى من كوبها في جوفها، ثم تنهد وبدأ يُحدّق في الفراغ بينه وبينها، مستسلمًا لفشله في الاكتراث لكل ما قيل، كأي إنسان نجا من تجربة انتحار عابر للشخصية منذ تسعٍ وثلاثين ساعة فقط، ثم زفر قائلًا:

- حسنًا.

أفرغ يوشيرو ما بقي في كوبه ونهض، دافعًا المائدة بيده، ليفقد توازنه قليلًا -أعراض جانبية للقهوة- فقامت مايو واتجهت نحوه،

أخذت بذراعه، لكنه تكاسل وجلس على حافة الكرسي، فارتطمت مايو به تقبله سلسلة من القبلات على مائدة المطبخ انتهت فوق السرير، ثم عمّت السكينة المكان، هدوءٌ لم تُقْلقه حتى خطوات ذلك الظل الغريب المألوف من مركبة الملهى الليلي، الذي يلبس قبعة ويجوب غرفة يوشيرو بينما هما نائمَين.

يفتح الظل بسرعة وخفة أحد صناديق أغراض يوشيرو المرتبة المخصصة للسفر -صندوق خصصه لأدوات عمله- لكن عوض أن يأخذ شيئًا، يضع الغريب شيئًا.

يُخرج من جيب معطفه كرة متوهجة كالجمرة، تُظهر بعضًا من وجهه، يطفئها بكبسة ويضعها بين الأغراض، ويغلق الصندوق، ثم يختفي عائدًا إلى الظل.

استيقظت مايو صباحًا على صوت منبّه في ذهنها، إحدى خصائص الساعة البيولوجية الاصطناعية المبرمجة داخل شريحة مزروعة في معصمها. طبعت قبلة على خد يوشيرو النائم، وتمنّت له رحلة سالمة، هامسة في أذنه، ثم خرجت.

بعدها بنصف ساعة، استيقظ يوشيرو، اغتسل، وأفطر على عجل، ثم حمل أمتعته داخل مركبته القمرية واتجه نحو محطة الإطلاق.

يفكر بينما يقود:

هل اتّخذ الخيار الصحيح؟

ما سبب هذا الحنين الطارئ إلى المنزل على المريخ؟

يعلم أنه لن يجد فيه سوى أثاث الذكريات التي لم يعد واثقًا من الفرق بينها وبين الخيال. لا تؤلمه هذه الذكريات بالتحديد، بالأحرى، لا يعرف ما يؤلمه، ولا ما لا يؤلمه. ربما لم يعد يعرف كيف يتألم، ربما هي ميكانيزمات دفاعية من دماغه... أو على الأقل، هذا ما يظن. كل ذلك الضياع، في الواقع، ليس سوى أعراض جانبية للغاز الحيوي الذي يُصرّ مجلس الوصاية الفيدرالي على أن يستهلكه سكان القمر كل يوم، ويحرصون على إعطاء

يوشيرو جرعة خاصة لا يعرف أنها تختلف عن جرعات باقي سكان القمر.

لم يعد قادرًا حتى على تخيّل أمه تنتظره أمام باب المنزل، كما كانت تفعل عندما كان يرجع صغيرًا من عطلته مع أبيه على القمر.

أخبروه منذ سنوات أنها قُتلت من طرف المقاومة، انتقامًا من زوجها، لكنه لم يُصدّق ذلك يومًا.

رغم صِغَر سنّه آنذاك، إلا أن لديه ذكرى دقيقة محفورة، يتذكر فيها حوارًا لأحد أصدقاء العائلة في المريخ مع أحد المحقّقين، يخبره بانعدام دليل قاطع على مقتلها، دليل كجثّتها، أو شيء من هذا القبيل.

******

من الرحلات القمرية إلى المريخ نوعان:

الرحلة السنوية الجماعية، رخيصة مقارنة بالانفرادية، وتتطلب تعهدات قانونية إعجازية نوعًا ما، حرصًا من الفيدرالية على عدم اتصال سكان المريخ العاديين بسكان القمر على قدر المستطاع.

والرحلة الانفرادية التي لا تتطلب كثيرًا من الشروط مقارنة بثمنها. أما يوشيرو، فاختار السفينة الانفرادية لأنه استطاع تحمّل نفقاتها، وهو حاصل على شهادة طيّار إقليمي، ولأنه يمتلك أيضًا مكان إقامة نظامي بالمريخ، منزل والديه القديم.

وصل يوشيرو إلى قاعدة محطة الإطلاق داخل نفق في نهايته ساحة واسعة، لبس خوذته وترجّل من سيارته التي اتجهت وحدَها مباشرة نحو قاعدة تفتيش الأمتعة، بينما مشى هو إلى أقرب قاعدة لتفتيش الأفراد، ليرافقه بعدها أحد العاملين إلى المركبة الخاصة به، لا تبعد كثيرًا عنهم.

أخبره أحد الجالسين في مكتب التفتيش أنه قليلًا ما يسافر الموظفون والعمّال إلى المريخ، لهذا سيتأخر العامل الذي يجب أن

يرافقه إلى مركبته قليلًا، فوافقه يوشيرو الرأي بإيماءة رأسه مبتسمًا، وهو يدرك أنه موظف فيدرالي مراقِب.

دخل المرافق بعدها ببضع دقائق، شاب طويل القامة وبدين، يحمل لوحة في يده ويتكلم بصوت رقيق مسالم:

- مرحبًا سيد يوشيرو، اسمي دريك، سأرافقك إلى مركبتك.

وخرج الاثنان فورًا من مكتب التفتيش. يسير دريك في المقدّمة، ليبطئ من مشيه قليلًا حتى يلتحق به يوشيرو، لكي يسأله:

- مسافر لعمل أو زيارة سيدي؟

ينتظر يوشيرو هنيهة قبل أن يجيب، ثم يقول:

- لا هذا ولا ذاك.

فيلتفت إليه دريك ضاحكًا بمهنية:

- لا تخطط للرجوع إذًا؟

- آمل ذلك.

يستمران في المشي في صمت، ثم يقطعه دريك:

- ما كنت لأرجع أيضًا لو كنت مكانك.

يُثار فضول يوشيرو فيسأله:

- لماذا؟

يجيب دريك بكل ارتياح كأنه يحدّث صديقًا:

- إييه، لكل الأسباب...

ثم تستمر دردشتهما:

- هل وُلدت هنا؟

- أجل.

- هل زرتَ المريخ من قبل؟

- عائلتي تعيش هنا، ولا أستطيع توفير ما يكفي من المال للرحلة السنوية.

أومأ يوشيرو منصتًا، وعمّ صمت قصير بينما يمشيان، قاطعه دريك من جديد بعدما انتبه لاسم يوشيرو العائلي على لوحة استعلامات المسافر بين يديه:

- سيد يوشيرو، هل صحيح أن المريخ أصبح يشبه الأرض؟

فكّر يوشيرو قبل أن يجيب:

- تقريبًا، فلقد مرّ زمن كافٍ عليه في النطاق الصالح للحياة، بالإضافة إلى ملايين الدفيئات الزراعية التي تبنيها الروبوتات فوقه يوميًا، قد تتخلّص الفيدرالية من كوكب الأرض عندما يكتمل تطوّره و...

فيقاطعه دريك:

- ماذا عمّا كُتب في "Tos"، أحقًا قام الأكتوريّون بدفع المريخ نحو مدار الأرض؟

-لا أعرف.

يُجيب يوشيرو، رغم صحّة عكس ادّعائه. من الصعب الإجابة على ذلك السؤال بجواب يختصر سنين من البحث قضاها مهووسًا حول هذا الموضوع بالذات، بطريقة لا تجعل دريك يرغب في طرح أسئلة مزعجة إضافية قد تُشكّل خطرًا عليه في آخر المطاف. لكنه بينما ينظر إلى دريك الذي طأطأ رأسه وهمّ بالسير أمامه كطفل لم يحصل على ما يريد، قرّر أن يختصر له الطريق، طالما ستكون آخر مرّة سيراه فيها على الأرجح، فقال له هامسًا يخبره شيئًا لم يكن قانونيًا على يوشيرو حتى الوصول إليه:

- تلك مجرّد قصة. إذا كنت فضوليًا كفاية لكي لا تكترث لسلامتك، ابحث عن ملفات "بوابة القمر السابعة".

سمع دريك ذلك، ثم استمرّ دون ردّ فعل في عمله، يُخفي حماسًا مجنونًا برق في عينيه فجأة.

وبعد تفتيش الأمتعة داخل ممرّ أشعة، تم تحميلها داخل السيارة من جديد، واتجهت هذه الأخيرة لتنضم إلى بدن سفينة تشبه الصحن الطائر تحت أنظار يوشيرو ومرافقه دريك، اللَّذَيْن وصلا إلى السفينة كذلك. وتسلق يوشيرو بسرعة بابها، ثم استقرّ داخلها جالسًا، لتُقفل قبتها الشفافة فوقه. ثم خلع خوذته ولبس خوذة اتصال بينما يراقب دريك يلوّح له بشريط أصفر. ضغط أزرارًا وعدّل مقاييس هنا وهناك، ثم هدأ يتنفس بعمق إلى حين وصول موعد انطلاقه.

******

في زمن ما قبل إعادة ضبط أرشيف البشرية من طرف فيدرالية القمر، كانت تُعدّ الكينونات المعروفة بالأكتوريين من أكثر الرموز شهرة في السرديّات الإيزوتيريكية المعاصرة آنذاك. كانت تندرج تحت ما كان يُعرف بالعصر الجديد، وتتناول الحضارات غير الأرضية. ورغم غياب الأدلة القاطعة على وجودهم، إلا أن ذكرهم كان يتكرّر باستمرار في تقارير التواصل فوق الحسي، وأدبيات ما بعد الحداثة الميتافيزيقية، عند الوسطاء الروحانيين خصوصًا في القرن الواحد والعشرين، بصفتهم أكثر المخلوقات تطوّرًا روحيًّا في مجرة التبانة.

يُنسب الأكتوريون إلى نجم أركتوروس، أحد ألمع النجوم في السماء الشمالية، وتقترح روايات ما قبل الأرشفة الأولى أنهم كائنات من طيف طاقيّ أعلى، تتجاوز البعد الفيزيائي المعروف، هم على مستوى ما يُسمّى بالبعد الخامس أو السادس. يُعتقد أنهم ذو وعي وحضور كوني متطوّر إلى درجة لا تسمح لهم بالتدخّل المباشر في أحداث الأرض، مثل كيف كان البشر لا يتدخّلون في شؤون الحيوانات في الغابة أو القبائل البدائية المنعزلة. وكان يُنقل بين رواد العصر الجديد أنهم يكتفون ببثّ تردّدات ذهنية وروحية تُلهم فقط أفرادًا معيّنين من الحضارات الناشئة نحو التوازن الداخلي والارتقاء الجماعي. وتتركّز مهامُّهم ـ وفقًا للسرديات

المتداولة حينها ـ على الهندسة الطاقية، والشفاء عبر الترددات، وتنظيم العلاقات بين الأنظمة الكوكبية والأوعية الجمعية.

كانت هنالك في الواقع لائحة طويلة من الكينونات الشائعة المماثلة في ذلك العصر، ذاع صيتها عالميا بالخصوص ابتداء من سنة 2040 حتى أصبحت رموزا شمولية لأديان جديدة طغت على الأديان القديمة المنسية، لكن فدرالية القمر انتقت بعدها واحدة فقط وذكرتها في ما سمي بالTos.

دستور النظام العالمي الجديد: Terms Of Service.

البلوكشين الذي ينظم الحياة على القمر، وحتى على المريخ بعد فوز الفدرالية عليهم، ولتثبت للناس ارتباطها بشيء قديم ومقدس، ذكرت في الدستور قصة تدخل هؤلاء الأكتوريين لإنقاذ البشر من الفناء في الحرب العالمية، محاولة إضافية من الفدرالية لتشجيع ما لم يشجعه الخوف من الناس على ترك الأرض والهجرة للمريخ والقمر.

لم تمضِ سوى عشرِ دقائق فقط على خروج يوشيرو بمركبته من مدار القمر وسباحته في الفضاء، حتى انطلقت صافرات ومصابيح الإنذار داخل المركبة، تدل على اقتراب صواريخ. ناورها بجهدٍ محظوظ بينما يحاول الاتصال بالقاعدة، إلا أن كل محاولاته باءت بالفشل.

وازدادت حدّة الهجوم عليه وهو يناور بكل ما أُوتي من براعة، فاضطر إلى الهرب من مسار المريخ ولجأ نحو مسار الأرض. أُصيب أثناء تلك المناورة جناح المركبة الأيمن، فانطلقت مندفعة في دورانٍ عشوائي كطائرٍ جريح يخترق غلاف الكرة الأرضية الجوي. حاول يوشيرو إعادة تشغيل الملاحة اليدوية، فنجح في ذلك بعد جُهد مستمر، ما أعطاه فرصةً ليسيطر قليلًا عليها بكيلومترات قليلة فوق الأرض، بما يكفي لكي لا تتحطم لأشلاء أثناء الهبوط.

استفاق يوشيرو من إغمائه، لا يستطيع تحريك سوى عينيه يميناً ويسارًا، ثم أحس بألمٍ في ركبته أيقظ إحساسه بباقي جسده. حاول تحريك رجله اليسرى فصرخ من شدّة الألم. هدأ قليلًا وأخذ نفسًا عميقًا، ثم بدأ يحرك يديه لتحريرهما ونجح في ذلك، ثم دفع قطعة الخشب من أمامه، وحرك رجله اليمنى وحررها، ثم

تلمّس فخذه إلى ركبته اليسرى فوجدها مطعونة بقطعة حديد صغيرة. أخذ أنفاسًا سريعة ثم أخرجها صائحًا، وسرعان ما تحوّلت صيحته إلى بكاء، ثم إلى ضحكٍ شبه هستيري سعيدٍ بنجاته.

تحرّر يوشيرو بالكامل، وزحف خارج مركبته ليقع على ظهره في بركة ماء ضحلة. استسلم للألم والتعب واستلقى مرتخيًا.

توهمت له تلك البركة كسريره المائي الذي تركه في شقته على القمر. فقد وعيه لدقيقة، ثم استيقظ وجرّ نفسه خارج البركة واتكأ على شجرة. مزّق قطعة من بذلته ولفّها على ركبته بقوة والألم ينخر لحمه، ثم استند على الشجرة ووقف بصعوبة.

يحدّق إلى محيطه. يبدو أن مركبته سقطت في غابة ما، داخل أدغال الأرض. لا يعرف شيئًا عن هذا المكان سوى من الأساطير والنُكت والقصص التي كانت تحكيها له أمه قبل النوم، وأبوه كلما سنحت له الفرصة. ينتشر ضباب كثيف في الأرجاء، لكنه لا يستر كل تلك الأشجار الضخمة ذات اللحاء الأزرق الفاتح والأوراق البيضاء، والأرض المفروشة بترابٍ أسود.

أخذ يوشيرو حفنة تراب من موطئ قدمه، يداعبها بأصابعه، ثم رماها ليدور ببصره بدهشة. يرفع رأسه نحو السماء حيث تجري السحب بسرعة، وبألوان نيلية قريبة إلى الأسود والبنفسجي. مشهدٌ

خيالي يجعله يحس كأنه داخل لعبة افتراضية من نوع تلك الألعاب التي كان يلعبها مع أبيه في صغره.

عرّج نحو المركبة ليتفقد الأضرار ويعالج ركبته. تضررت المركبة كثيرًا، وتسرب كل الهيدروجين من خزانها، ولن يستطيع تشغيلها بدونه.

اتجه إلى الخلف وبذل جهدًا ليحشر يده داخل فوهة صغيرة على جانب المركبة، فإذا بسيارته المتنقلة الصغيرة تنفصل عنها وتأخذ مكانها فوق العشب. تبدو سليمة. ابتهج وجرّ رجله نحوها، يعانقها ويقبّلها. حشر يده داخل فوهة في جانب السيارة وفتح الباب الخلفي، ليصعد منه ويتجه نحو صندوقٍ أبيض ملتصق بالحائط، يفتحه ويخرج منه أكياسًا بلاستيكية. يفتح أحدها بأسنانه ويضعه جانبًا، ويمدّد رجله اليسرى، ويفك رباط الثوب من ركبته. يبدو أن الجرح مستعد للتعفن.

أخذ الكيس وبدأ يصب القليل من البودرة البيضاء على الجرح حتى يغطيه تمامًا، ثم فتح كيسًا آخر وأخرج ضمادة لاصقة وجهازًا أسود صغيرًا يشبه الكشّاف الضوئي من الصندوق. أشعله، لينتشر شعاعٌ أزرق يمسح جرحه ذهابًا وإيابًا، ثم أخذ الضمادة وألصقها على ركبته.

بدأ الألم والانزعاج في الاختفاء تدريجيًا. أخرج من الصندوق علبة صغيرة بها أقراص مغذية، أخذ اثنتين، وجلس ينظر إلى السماء بينما يخلع الضمادة ويمسح البودرة من فوق ركبته، حيث اختفى الجرح وأثره كأن خدشًا لم يحدث.

فجأة، بدأ يسمع صوتًا خافتًا قادمًا من أحد الصناديق. جرّ الصندوق، فتحه، وبدأ يفرغه حتى وجد كرةً حديدية متوهجة، ازدادت سرعة رنينها فجأة.

أي شخص كان ليرميها فزعًا في تلك اللحظة، لكنه يعلم جيدًا ما بين يديه.

يُسمى "الظرف"، وسيلةٌ قديمة الطراز لنقل المراسلات الاستخباراتية السرّية داخل حزمة من المعلومات الكمية، من الأشياء الخطيرة وغير القابلة للاختراق، الممنوع امتلاكها.

ظنّ عندها أنه فهم سبب قصف مركبته، وقبل أن يتساءل عن سبب وجود "الظرف" داخل صندوق أدواته، توقّف الرنين، وقشرت الكرة نفسها من الغشاء الحديدي الرخيص غير الأصلي، الذي لم يكن السبب الوحيد في اكتشاف القوات الأمنية له أثناء مروره من الحزام الأمني للقمر، بقدر ما كان ذلك الشيء الغريب

الرمادي الذي وجده يوشيرو داخل الكبسولة في شقته ووضعه مع حاجياته، سبباً أكبر لاستهداف المركبة.

بقي المحتوى المشع فوق الكرة يطفو فوق يد يوشيرو، ثم انبثقت منه فجأة صورة هولوغرافية لرموز وأشكال وأرقام وإحداثيات، ثم صورةُ رجلٍ في منتصف العمر، أسمر، ذو لحية كثيفة ونظرات حادّة، يرتدي معطفًا بنيًّا ويلبس قبعة رُعاة البقر، ويتحدث بصوتٍ غليظ وكلماتٍ موزونة ومختصرة، بلكنة سكان إحدى مناطق المريخ.

" هنا بيتر كروفسكي... تحياتي إلى الرفاق في المنطقة المحتلة... أيامي معدودة في أراضي العدو هنا... يقتربون من اكتشافي كل يوم... أعلم حجم المهمة التي يسعدني التضحية من أجلها... وستكون هذه آخر رسالة أرفقها بكل المعلومات التي تمكنت من جمعها... الوداع. النصر أو الموت... النصر والموت."

لم ينتبه يوشيرو لتفاصيل كلام كروفسكي بقدر ما انتبه إلى قبعته، والرسم المألوف عليها، ولم يدم وقت طويل قبل أن يكتشف أنها قبعة أبيه نفسها، وأن الرسم في مقدمتها من خياطة أمه.

التأم الحديد حول الكرة الهلامية المتوهجة تحت أنظار يوشيرو الحائرة. عشرات الأسئلة تنبت داخل دماغه، يرويها الفضول والقلق والحماس.

كان بيتر كروفسكي جنديًا من "الجيش الحر" المريخي، استسلم بإرادته في آخر المعارك مع روبوتات الفيدرالية، فقط ليُكمل مهمته السرية عميلًا مزدوجًا وجاسوسًا، وكان أول امتحان صعب له لإثبات ولائه للفيدرالية هو قتل ياماداً، والد يوشيرو.

كروفسكي يشبه معظم عناصر المقاومة في المريخ؛ ليس من النوع الذي يضحي بحياته من أجل النصر فقط، بل المستعد أيضًا للتضحية بحياة غيره لتحقيقه، عدوًّا كان أو حليفًا، طفلًا كان أو امرأةً حاملًا، أو حتى جروًا صغيرًا ظريفًا إذا استدعت الظروف ذلك. بالأحرى، هكذا فقد عائلته.

مرّ عليه فوق سطح القمر أكثر من تسع سنوات، أرسل فيها إلى قاعدة المقاومة على المريخ أربعة أظرفة محملة بالمعلومات السرية. لم تكن صعوبة المهمة في جمع المعلومات فحسب، بل في جمع المواد

اللازمة لصناعة الظرف، خاصة الغشاء الحديدي. وإهماله في إخفاء تحركاته الأخيرة أثناء البحث عن تلك المواد جعله يدرك أن الفيدرالية ستصل إليه عاجلًا أو آجلًا.

كان يشعر بأنه ترك ثغرة ما تنتظر المراقب المناسب لاكتشافها، لكنه وجد أخيرًا معطيات بالغة الأهمية قادرة على قلب موازين الصراع. فأصبح كل همه بعدها هو إيصال الظرف بأي طريقة ممكنة، وفي أقرب وقت ممكن. ولم يكد يصدق حظه، عندما كان جالسًا ذات ليلة داخل ملهى ليلي يشرب، حين سمع شخصًا يصرخ: "سأذهب إلى المريخ غدًا."

فتعقب كروفسكي طريق يوشيرو ومايو نحو الشقة تلك الليلة، عرف أين يسكن، وعاد بعدها ليتسلل إلى الداخل ويدس الظرف داخل صندوق الأمتعة.

ثم رجع إلى الملهى الليلي، ليجد استقبالًا من نوع خاص، محاطًا بعميلين أمنيين تابعين للمجلس الحربي الفيدرالي. قاتلهما ببسالة، قبل أن يلفظ أنفاسه جالسًا بجانب قنينة فودكا وجثتي العميلين، متأثرًا برصاصتين في صدره.

انطلق يوشيرو بسيارته داخل الغابة العجيبة، يخترق عباب الضباب، ويراوغ سيقان الشجر الضخمة الزرقاء. تنغمس عجلاتها تارةً في وحل يشبه القطران، وتارةً في برك برتقالية مشعة. مقارنةً بفيديوهات وصور الأرض التي شاهدها من قبل، تبدو له الآن حلمًا سايكيديليكيًّا.

يسترشد بخارطة طريق على شاشة صغيرة بجانب مقود السيارة، أوصلها بصعوبة بأحد الأقمار الاصطناعية لسفينة فندق فضائي مهجور يدور حول الأرض.

توقف بعد مدة طويلة من القيادة، وصلت عندها الشمس إلى كبد السماء. نزل من سيارته متجهًا نحو بحيرة كبيرة، وفتح سحّاب سرواله فور وصوله إلى عتبتها، وأخذ يبول.

لاحظ فجأةً تغير لون ماء البحيرة بعدما امتزج ببوله إلى لون أسود، وبدأ الماء في الانسحاب متراجعًا من أمام يوشيرو فيما يشبه الجَزر. ثم ارتفع وسط البحيرة رأس ضخم يشق سطحها ببطء مهيب، يغطيه شعر كثيف وطويل، تبعه وجه شبه بشري عريض، ثم عنق، ثم كتف وبطن هائلة، وأذرع كأجنحة طائرة، ثم خصر وركبتان، لتكتمل اللوحة النهائية المرعبة أمام نظرات يوشيرو الشاخصة، لعملاق يصل ارتفاعه إلى خمسة عشر مترًا.

فقد يوشيرو توازنه مذهولًا، محاولًا الرجوع إلى الخلف، وسقط تحت ظل هذا العملاق العاري، يقف كالمارد أو الجبل، شامخًا كعمارة من ستة طوابق، يرمق يوشيرو بنظرات فارغة من أي معنى، ضامًّا ذراعيه إلى صدره كأنه على وشك السؤال عن أمنيات.

تراجع يوشيرو مذعورًا، زاحفًا إلى الخلف، وعيناه تتعبان من التنقل بين رأس العملاق وأرجله. ثم نطق دون وعي بصوت مبحوح، ويده ممدودة إلى الأمام دفاعًا، كأنها ستنفع في شيء إذا تعرض لأقل هجوم:

- لا بأس... لا بأس...

عمّ صمت موحش في المكان، لا يتحرك شيء، ولا ترمش عين، ويبدو على محيّا العملاق أنه يبذل جهدًا لقمع رد فعل، ليفشل في ذلك وينفجر فجأةً ضاحكًا بزمجرة صاخبة، ويقول بينما يقهقه:

- هاهاهاهاها... لا بأس؟؟

استمر في الضحك الساخر من هلع يوشيرو، ثم أردف:

- آآاه، لم أضحك هكذا منذ أن أخرج إنسيٌّ ريحًا داخل فمي بينما أمضغه.

قالها ثم نظر إلى يوشيرو بكل جدية.

هذا الأخير استجمع قواه وركض بكل ما أوتي ليصل إلى سيارته، ويقفز داخلها، يهمّ بتشغيلها للهرب، ليجد نفسه يرتفع فجأةً في الهواء فوق يد العملاق، حتى وصل إلى نفس مستوى وجهه.

زفر هذا الأخير ريحًا على وجه يوشيرو حتى تغيّرت ملامحه، وقال:

- لِمَ كل هذا التسرع؟

أخذ يوشيرو نظرة خاطفة من نافذة السيارة إلى أسفل، وقال بصوت مستسلم يستدعي حس الدعابة:

- لا، بتاتًا، يعجبني المنظر من هنا.

تبسّم العملاق على رده، وأنزله أرضًا.

ترجّل يوشيرو من السيارة، يرسم بفمه ابتسامة محسوبة، كمن يبتسم وفي فمه شوك. عيناه ثابتتان تفتشان وجه العملاق عن أي كمين، ثم سأله بنبرة مجاملة وحذر:

- تمزح، صح؟ لا تأكل البشر حقًا؟

يجيبه العملاق:

- هل كنت لتتخيل أنك ستقول هذه الكلمات بهذا الترتيب عندما استيقظت هذا الصباح؟ (ويستمر في ضحك خفيف).

بدأ يهدأ روع يوشيرو بعض الشيء وهو يلاحظ وداعة ولطفا وراء حجم هذا الكائن المخيف الماثل أمامه جعلته يشعر بأُلْفَةٍ تجاهه، وقال:

- سيد عملاق، هذا الصباح، استيقظت فوق سرير على القمر، لك أنت أن تتخيل الآن ما لم يكن في قائمة أعمالي لبقية اليوم.

لاحَت في عيني العملاق نظرةُ فضول، رفع رأسه إلى السماء مُغمضًا عينيه، ثم تحولت فجأةً نظرةُ الفضول تلك إلى حماسٍ يصعب ملاحظته، وقال بصوت داخلي مشوب بالتعجب:

- أنت!

ثم وضع سيارة هذا الأخير أرضًا، وجلس داخل بحيرته حتى فاض ماؤها أمواجًا تلطم جوانب السيارة، وقال:

- تكلم، ما حكايتك؟

رمق يوشيرو بجانب عينه طريقًا معبّدة على بُعد أمتار قليلة، وبدون أدنى أثر لذكاء أو تخطيط أو صبر، فقد توازنه وهو يسقط وينهض مهرولًا نحو السيارة. شغّلها بسرعة، ودار بها نحو الطريق يحلم

بالهرب. لم يكد يصل إليها حتى رفعه العملاق من جديد مبتسمًا، ووضعه بسيارته فوق شجرة قريبة منهما، وأعاد الطلب:

- لا تكن خجولًا، أخبرني قصتك.

استسلم يوشيرو حينها، تنفّس بعمق من التعب، ثم نطق:

- كنت أعمل في مصنع آلات على القمر. تركت العمل، وكنت في طريقي إلى المريخ، لولا هجوم على المركبة اضطرني إلى النزول على الأرض.

بدت على وجه العملاق بعض ملامح الملل المقصود:

- من هجم عليك؟ ماذا كنت تعمل؟ أتسمي هذه قصة؟

يُجيب يوشيرو:

- هذا ما حصل.

يكتم العملاق ابتسامة، ثم يسأل:

- أهذا كل ما حصل؟

سكت يوشيرو في ارتباك من سؤال العملاق، الذي أردف مُصرًّا بشيءٍ من الغضب المفتعل:

- أخبرني شيئا لا يعرفه أحد عنك.

يفكّر يوشيرو: لا بد أن هذا العملاق قضى دهرًا وحيدًا على هذه الأرض، ويريد أن يعصر منه كلّ الرفقة التي لم يحظَ بها كلّ ذلك الوقت، فلِمَ كل هذا الاهتمام بما جرى معه إن لم يكن لهذا؟ تفهم يوشيرو ذلك، فحتى هو كانت تمرّ عليه أوقات كهذه، يَلجأ فيها إلى الدردشة مع روبوتات. فبدأ في البوح، ونظراته مشدوهة إلى عيني العملاق، وقال باختصار ساخر، كأنه طفل يتباهى بأحدث لعبة اشتراها له عمّه:

- حاولتُ الانتحار.

صمت بعدها، على أمل أن تُغني الكلمتان عن الشرح، لكن الصبر الكامن في صمت العملاق كان ضاغطًا، كأنما يحفر في صدر يوشيرو، فأرغمه على إخراج الباقي:

- ومصاب بمرض لا علا...

يقاطع العملاق كلام يوشيرو فجأة، ويطبع بذلك كلًّا من التعجب والصدمة على وجهه:

- "عتمة شيفر"!

في رحم غرفة مظلمة، تجلس مايو أمام مكتب دائري، وعلى سطحه شاشة حاسوب ذات انحناءة مقعّرة. عيناها مركزتان على الشاشة، حيث يظهر يوشيرو عبر كاميرا مراقبة وهو يتجول داخل قسم "إعادة التجسد" في المستشفى الفضائي المهجور.

تراه يدخل إحدى الغرف، ويتقدم نحو رف قديم، يمدّ يده، ويأخذ كتابًا موضوعًا هناك. تمدّ مايو يدها نحو الشاشة، تمرر إصبعها فوقها، لتعيد الفيديو إلى الوراء قبل ظهور يوشيرو. كانت تحاول اكتشاف مصدر الكتاب.

لكن ما رأته جمد الدم في عروقها.

تقترب من الشاشة، فمها نصف مفتوح، وعيناها شاخصتان من الدهشة. تعيد المقطع مرارًا، ببطء شديد، تراقب اللحظة التي ينبثق فيها الكتاب من الفراغ، كأنه لم يكن، ثم كان. تخرج من الملف وتفتح آخر، فتظهر نسخة من نفس الكتاب فوق كرسي في غرفة معيشة داخل منزل ما. ثم فيديو ثالث، أوضح، يُظهر الكتاب وهو يسقط من العدم فوق جناح جانبي لمركبة فضائية داخل حظيرة تابعة لأسطول المركبات. يمر عامل بالصدفة، يلمحه، ينحني، ويلتقطه بفضول.

ثم تدخل هذه المرة لحساب منصة، يحمل رمزا دائريا يتوسطه شكل عنقاء، علامة الفيدرالية، تظهر خانة تدخل فيها كلمة مفتاحية ثم تدخل تتصفح وثائق يتجلى بينها شكل الكتاب نفسه، محاطًا بشروحات معقدة ورسومات غامضة تحوم حول معانيه.

أغلقت مايو الحاسوب ببطء، وجهها تعلوه علامات القلق والريبة. تنهدت وقالت بصوت مرتعش:

- يوشيرو... ما الذي ورطت نفسك فيه؟

******

تأمل العملاق يوشيرو طويلًا، ثم قال دون تمهيد:

- أستطيع أن أخبرك بعلاج مرضك، إن أردت.

اتسعت عينا يوشيرو حينها، مدركًا نوع العملاق الذي لا يقف أمامه. اجتاحت ذهنه ذكريات القصص والأخبار التي كان والده يرويها عن الأرض والتغيرات التي شهدتها.

أدرك أنه في حضرة النوع الثاني من الجنس الهجين من العمالقة شبه البشر، الذين صُمموا وراثيًا في القرن الثاني والعشرين، ويتمتعون بقدرات فوق حسية خارقة تجعلهم قادرين على استيحاء جواب أي سؤال حدسيا، رغم أن أبيه أخبره أن هذا الصنف انقرض ولم يبق على الأرض سوى الصنف الوحشي المفترس.

قبل أن يرد، انطلق فجأة صوت بوق حاد من مكان قريب.

التفت العملاق ويوشيرو معًا نحو مصدر الصوت، ثم تبادلا النظرات.

وقف العملاق بثبات، حمل يوشيرو بسيارته، وأخرج قدمه اليمنى من البحيرة بخطوة واحدة وصل بها إلى عمق الغابة، وقال:

- إنها معركة جديدة.

سار العملاق خطوتين، ثم اختفى خلف جبل عالٍ يطل على ساحة واسعة، حيث كان غبار المعركة يعتم الأفق ويخفي هوية المشاركين فيها. وضع السيارة بحذر على أحد منحدرات الجبل.

أخرج يوشيرو منظاره بسرعة، فبدت أمامه مشاهد سريالية: جيشان متقابلان، في جهة ثلاثة عمالقة أصغر حجمًا من عملاق البحيرة، يقودهم صف من الفرسان يمتطون مخلوقات صغيرة تشبه هجين الكنغر والسحلية. وفي الجهة المقابلة، فتاة على فرس تلوح براية بيضاء وبيدها بندقية، مرتدية زيًا عسكريًا، وخلفها جيش لا بأس به من الفرسان والمشاة.

ظن يوشيرو أن الفتاة في طريقها إلى الاستسلام، لكنه سرعان ما كاد أن يخيب ظنه حين أطلق الجيش الآخر البوق مجددًا معلنًا بداية المعركة لولا أن اندفعت الفارسة منفردةً وجريئة، مما أثار إعجابه المرسوم بوضوح على تعابير وجهه.

بدأ الاشتباك، وانطلقت سمفونية من الصراخ والعويل، وزمجرة العمالقة، ودوي الرصاص وتصادم السيوف.

خرج يوشيرو من سيارته مستمتعًا بالعرض، يراقب تحركات الفارسة بمنظاره. شاهدها وهي تتسلق شعر أحد العمالقة بخفة مذهلة، وترمي ما بدا كأنه متفجرات داخل أذنه، ثم تنزلق إلى

الأرض مبتعدة. في لحظة انفجر رأس العملاق، متناثرةً أشلاؤه في كل مكان.

صاح يوشيرو مدهوشًا من روعة المشهد، وتابع الفتاة حتى وجدها عالقة تحت فرس أزرق. أمال بنظره إلى اليمين قليلًا ولمح مجموعة من أعدائها على وشك ملاحظتها. لم يستغرق الأمر كثيرًا قبل أن يرمي منظاره داخل سيارته وينادي العملاق ليطلب منه أخذه إلى أرض المعركة. شاح العملاق بنظره عن طلبه بلا مبالاة.

صعد يوشيرو إلى سيارته ونزل بها منحدر الجبل بسرعة، يسوق مباشرة نحو عجاج أرض المعركة، باحثًا عن الفرس الأزرق التي تجلس عليها الفتاة. رآها من بعيد وزاد من سرعته نحوها، وصل إليها ونزل ليجدها مغمى عليها.

تأمل في وجهها للحظة، بدا له مألوفًا إلى حد بعيد، ثم حررها بعد جهد من قبضة الفرس، حملها وتوجه نحو سيارته، ولم يكاد يصل إليها حتى حجزه عملاق غاضب في طريقه. تمسك يوشيرو بالفتاة في حضنه جيدًا وهرب مراوغًا محاولات العملاق الإمساك به، لكنه ضل طريقه داخل أرض المعركة، ليجد نفسه أمام فارس عدو يبدو أنه تعرف على الفتاة في حضنه.

نزل الفارس عن مطيَّته، وحركاته توحي بشرٍّ هادئ، يلوّح بسيفه متقدّمًا بسرعة باغتت يوشيرو. وفي اللحظة نفسها التي همّ فيها بضربته، استعادت الفتاة وعيها، لتجد نفسها في حضن رجل غريب. دفعت يوشيرو وتحرّرت منه، فمرّ السيف بينهما ليجرح ذراعها في طريقه.

ما إن سقطت أرضًا حتى أخرجت بسرعة مسدسًا من جيب مربوط حول خصرها. انطلق منه صوت خافت، دون شرارة أو رصاصة. كان مسدس أمواج صوتية أردى المهاجم قتيلًا على الفور. ثم وجّهت المسدس نحو يوشيرو الملقى على الأرض، رافعًا يديه وهو يصرخ:

- لا... انتظري... أنا لست معهم... أنا أنقذتك!

ركزت الفارسة بنظرها على وجهه، كان مألوفًا بطريقة غريبة. رفعت مسدسها مجددًا، لكن هذه المرة أطلقت باتجاه عملاق كان يجري نحوهما. التفت يوشيرو سريعًا، فرأى ظل قدم هائلة تهبط نحوه. انكمش، ضامًا رأسه، يحدّق بالأرض ويتمنى أن يستيقظ من كابوس.

وفجأة دوّى صوت لكمة قوية قادمة من عملاق البحيرة، أطاحت بالعملاق الآخر أرضًا كأنه مبنى ينهار.

وقف يوشيرو مذهولًا، يحدّق بفرح نحو العملاق، الذي صاح بسخرية على شبه جثة غريمه المغمى عليه:

- لا أحد يعبث مع وجبتي!

التفت يوشيرو إلى الفتاة التي كانت تخاطب العملاق بصوت هادئ، يوحي بأنها تعرفه:

- أخيرًا خرجت من بركتك يا كيوي، ظننتك تكره المعارك... ما الذي تفعله هنا؟

نظر يوشيرو إلى العملاق بدهشة ساخرة:

- كيوي؟! ما هذا الاسم السخيف الذي يليق بك!

اقتربت الفتاة من يوشيرو والتقطت سلاحًا مرميًا بجانبه، ثم قالت بنبرة تحذير خفيفة:

- هيه، أنت! أتسخر من كل من ينقذك، أو فقط من يفعل ذلك لأنك حيوانه الأليف؟

فأجابها ممازحًا، وهو يستعرض حسه الدعابي:

- ربما أحاول البقاء على قيد الحياة عبر إضحاكه قدر ما أستطيع!

فردّت عليه قبل أن تنضم إلى أرض المعركة:

- لا تقلق، كيوي لا يأكل البشر... يعيش على التركيب الضوئي!

نهض يوشيرو وبدأ يركض خلف خطوات كيوي التي تشق طريقها وسط صفوف العدو. وصل إلى سيارته، وهمّ بالدخول إليها، لكن سيفًا مباغتًا انقضّ من خلفه، كاد يشق رأسه. لولا اصطدام السيف بهيكل مدخل السيارة.

فاستدار يوشيرو ولكم المهاجم بمرفقه، أطاحه أرضًا، ثم نزع السيف وهم بإبعاد المهاجم به. لكن منظر الفتى الهزيل القصير، المرمي على الأرض، المذعور، منعه من ذلك. فرمى السيف بعدما تكلم الفتى بصوت يختنق من البكاء:

- أرجو ج ج ج بجوك... لا أريد قتلك ك ك ك..

بدى صوت الفتى الرقيق كأنه لم يبلغ بعد مرحلة البلوغ. لم يفكر يوشيرو كثيرًا كعادته، بل طلب منه بسرعة أن يركب، ثم أسرع يقود سيارته خارج ساحة المعركة. وسأله:

- كم عمرك؟

ليجيبه الفتى:

- ثدي للحياة تجتاح ك ك ك ك كلب اعتقاد...

نظر إليه يوشيرو متعجبا.

- هل أنت بخير؟

يجيبه الفتى وأثر الخجل على وجهه:

- أنا آس س س سف... انها عَرّة... لا أستطيع ال - معنى ثدي لا ثدي لها ثدي كلاب - لا أستطيع التح ح ح حكم فيها...
- عَرّة؟
- أج ج ج ج أج ج جل... تشنج لالا لا إرادي... متلازمة ت ت توريت...

ابتسم يوشيرو ثم سأل الفتى، بينما يقترب من الخروج من ساحة المعركة:

- حسنا، خذ نفسا عميقا وحاول الاجابة ببطء.
- الإجابة على م م م ماذا؟
- عمرك يا فتى، كم؟ ألست أصغر من أن تكون في ساحة معركة.

يأخذ الطفل نفسا عميقا ثم يعتصر إجابة:

- ن ن ن ن نفس كلب - أربعة عشر سنة...

يسمع يوشيرو ذلك ويستمر في القيادة والمناورة بين الجيوش حتى ابتعد ثم يسأله:

- وما الذي تفعله هنا؟

يجيب الفتى مختنقا ببكاء مقموع:

- أتظن أن ن ن ني طلبت أن أكون هنا... لا أعرف حتى - ك ك ك ك ك - لا أعرف حتى ح ح ح حمل السيف... أجبرونا على فعل ذلك... ت م تجنيدنا إجباريا...
- من أجبركم ؟
- الفدرالية القم.. رية.

ضغط يوشيرو على فرامل السيارة بشدة حتى توقفت، نظر إلى الفتى وقال متعجبا:

- الفدرالية؟ متأكد؟
- أجل... يأتي عملاؤهم أحيانا... يظنون أن ن ن ن نا لا ندرك ذلك لكن كل الجنود... حت ت ت ت تى المشاة... راحة كلب بينهما كلب... يعلمون أن الأوامر العليا ت ت ت ت تأتي من المجلس الفدرالي... وليس هنالك شيء يمكننا فعله حيال هذا...

سرح يوشيرو في وجه الفتى البريء قليلا قبل أن يسأله هذا الأخير:

- هل تعمل لصالح الفدرالية ؟ لديك نفس سيارتهم.

رمى يوشيرو بصره نحو ساحة المعركة متجاهلا سؤال الفتى، ثم سأل وعيناه لا تفارق ساحة المعركة:

- ماذا عن الجيش الذي تقاتلونه هنا؟ من يجبرهم ؟
- هم من بدأوا الحرب... يهج ج ج جمون دائما على معسكراتنا ليسرقوا الغاز الحيوي...
- ولماذا سيريدون الغاز الحيوي هنا على الأرض؟

يجيب الفتى بكل إيمان ويقين:

- الكل يعرف أنه ب ب ب ببدون... بدون الغاز الحيوي سنموت... بسبب المرض

خرج يوشيرو من السيارة يتأمل في السماء، اللعبة أكثر تعقيدا الآن مما كان خياله المرتاب يظن طول تلك السنين على القمر، سأل الفتى:

- هل لديك أهل، تريد أن آخذك لهم؟

يجيبه والأسى يصبغ وجهه:

- لا... لا أريد الرجوع... ليس س س س س ليس لي أهل... ثدي يمكنه كلب... أنت قادم من القمر أعرف... خذني معك هناك.

قضى كيوي على كل عمالقة العدو، ثم بحث عن يوشيرو، فرآه واقفا بجانب سيارته خارج ساحة المعركة، نظر إليه من بعيد متمعنا كأنه يستطيع سماع ما يدور في خلده. ثم توارى داخل الأدغال القريبة عائدا إلى بحيرته.

أقبلت عليهما أميليا على حصانها بصحبة جنود، لمحت الفتى يخرج خائفًا من السيارة ويحتمي خلف يوشيرو. سألته بصوت رخيم يحمل لكنة أثارت ملاحظة يوشيرو، لهجة أولئك الذين بقوا عالقين على الأرض:

- من أنت أيها الغريب؟

أجابها محاولا تقليدها ومداعبتها بنفس لهجتها:

- أدعى يوشيرو، كنت في طريقي من القمر إلى المريخ، وخرجت عن المسار وحطت مركبتي هنا.

فسأله أحد الجنود بنبرة تفضح عدوانه:

- ما كان عملك في القمر يا هذا؟

أجاب وهو يرجع شعره الحريري إلى الخلف في استفزاز ساخر:

- مهندس ميكاترونيكس حيوية.

لاحظ يوشيرو إصرار الجنود على إظهار لغة جسد تكشف عدم فهمهم لما قاله للتو، فأردف:

- أصنع روبوتات.

ثم التفت إلى الفتى، الذي كان يحدّق فيه بنظرة الطفل إلى بطله، وضع يده برفق على رأسه وسأله:

- ما اسمك؟

- كريم.

ثم التفت يوشيرو إلى الجنود، وقد ضم كريم إليه كمن يحمي فرخه تحت جناحه، وقال بنبرة واضحة:

- كريم هذا تحت حمايتي، ولا أريد أن يمسه أذى.

عندها شدّت أميليا لجام حصانها، فارتفعت قوائمه الأمامية، ثم قالت محافظة على نبرتها الهادئة:

- لك ذلك، هذا أقل ما يمكننا فعله... لا أستطيع سوى الامتنان لتدخلك... نحن لا نعرفك بعد، لكنك حاليا ضيفنا على هذه الأرض.

في الحقيقة، كانت أميليا أثناء قول كل ذلك تخفي غبطتها الكبيرة ما إن علمت أن يوشيرو مهندس آلات، وبينما كانت تلقي نظرة أخيرة عليه وعلى مركبته، همس يوشيرو إلى كريم:

- أترى كيف تلمع عيناها وهي تنظر لسيارتي؟ هكذا يبدو الحب من أول نظرة يا فتى.

ضحك كريم من أنفه، بينما كانت أميليا تبتعد مع الجنود، بعد أن أمرت اثنين منهم بمرافقة يوشيرو وكريم إلى الكاهن في المدينة.

يقود يوشيرو سيارته ببطء خلف حصاني الجنديين، وعند مفترق طرق، اختار الجنديان المختصر، رصيف طويل ممتد، عبروه بسرعة، ثم خرجوا إلى مفترق آخر، وسلكوا شارعًا واسعًا مبانيه مهدّمة ومهجورة، وأرضه مغطاة بحطام السيارات، وركام الأبنية، وأوراق مبعثرة هنا وهناك.

توقّفوا عند لوحة طرقية متهالكة، كُتبت عليها بأحرف بيضاء مائلة:

"القطب الصناعي ←"

انعطف الجنديان باتجاهها، يتبعهما يوشيرو وكريم، وهما يتلفتان حولهما كالسائحَين.

المدينة خاوية من أي أثر للحياة، كأنها تعاني من اضطراب ما بعد القيامة. فقط صمت ثقيل يلفّ المكان كالكفن.

اقتربوا من منشأة ضخمة، تعلو بوابتها المغلقة عبارة عريضة لم تكن كلماتها غريبة عن ذهن يوشيرو، لكنها تطلّبت استدعاء الطفل داخله ليسترجعها... "قرف"... تمتم لنفسه.

"قسم الروبوتيكس الفدرالي"

هو الاسم الأصلي للقسم الذي كان يعمل فيه والده في الشركة قبل أن تترك نشاطها على الأرض وتركز على المعامل في القمر. الاسم الذي كانت أمه تختصره دائمًا بحروفه الأولى: "قرف".

أبطأ يوشيرو من سرعة السيارة أكثر، يمسح ببصره أرجاء المنشأة الغامضة. لاحظ أحد الجنديين ذلك، فعاد بحصانه إلى الوراء حتى اقترب من جهة مقعد كريم، ثم أشار إلى مبانٍ تقع على الجانب الآخر من الشارع، وقال:

- هنا كان يوجد أكبر مختبر للتعديلات الجينية على وجه الأرض.

لف يوشيرو بصره نحو الاتجاه الذي أشار إليه، بدا كصف من القباب الحديدية السوداء، هائلة الحجم، يحيط بكل قبة منها سياجٌ مرتفع، وخلف كل قبة تظهر ساحة فسيحة مربعة تحيط بها أعمدة ملولبة ضخمة، منتصبة في كل زاوية.

يسترسل الجندي مشيرا بيده:

- هناك، داخل تلك الساحات الكبيرة، كان يُعرض الجيل الأول من العمالقة..كيوي في الواقع هو الناجي الوحيد من ذلك الجيل.. لقد مضى زمن طويل جدًّا على كل هذا.. وساءت الأمور كثيرًا بعد هجوم أخوية النور على مختبر مانهاتن.

ينضم الجندي الآخر إلى الحديث بينما ينصت كريم ويوشيرو:

- يقول الكاهن أن بعد الانفجار، عمَّ ظلام دامس الأرضَ كلها لثلاثة أيام، اختفى فيها الملايين من البشر بين ليلة وضحاها. يقول الكاهن أنهم هبطوا إلى بُعدٍ أدنى.

عاد الجندي الأول يتحدث بحماس:

- لا تنس أن الفدرالية رحَّلت بعض البشر إلى المريخ...

لم يسمع يوشيرو ما تبقى من حديث الجندي، لكنه همَّ بالسؤال عن الكاهن، لولا أنه انشغل فجأة بالانتباه إلى ضوء مشعّ تراءى له من بعيد داخل أحد مباني منشأة "قرف".

لاحظ الجنديان الضوء أيضًا، فأخرجا سلاحيهما على الفور، ثم ترجّل يوشيرو من سيارته، والتحق به الجنديان، واتجه الثلاثة نحو مصدر الشعاع، يتبعهم كريم الغارق في تشنجاته من شدة الخوف:

- ك ك ك كلب التخبط... ثدي... اعتقاد الاستث...مار... ثدي...

دلفوا من أحد الثقوب الكبيرة في جدار المبنى المهجور، وتسلقوا حائطًا، ثم تسللوا إلى داخل المبنى. كان مصدر الضوء نافذة في أقصى شمال الطابق الثالث.

وصل يوشيرو أولًا، لكنه دخل بعد اقتحام الجنديين للغرفة التي تبدو مستودعًا مليئًا بأطرافٍ صناعية وآلاتٍ صدئة. لمح الجسم المضيء بالقرب من النافذة، مختفيًا تحت أنقاض جزء من الغرفة، فتعاونوا معًا على إزالة ما فوقه، حتى بدأت أبعاده الحقيقية تظهر شيئًا فشيئًا، إلى أن بان أمامهم شكلٌ آدمي لروبوت قديم الطراز، أبيض اللون تتخلله خطوطٌ سوداء.

تعرّف عليه يوشيرو فورًا، وهمس مع نفسه: "دروي كيو".

لقد درس عنه في أوائل حصص "تاريخ الذكاء الصناعي"، ويُعد هذا النموذج ثمرة مشروع طويل قديم منذ القرن الواحد والعشرين يُدعى "نكتوم". لم يُصنع منه سوى عدد قليل من الوحدات، خُطِفَ أغلبها على يد أعضاء أخوية النور، أما البقية فكانت تقبع في قبو أبي يوشيرو داخل المنزل المريخي، حيث استعملها يامادا لتطوير المحارب.

وبعد وفاة والده، شرع يوشيرو في البحث عن النماذج التي اختفت من منزل والديه في ظروفٍ غامضة، ولم يعثر أبدا على أي منها.

******

أخذ يوشيرو يطرق رأس الروبوت الشفاف المُشِعّ، فلم يخل بحماس المختص بالتعليق التقني الذي لم يطلبه أحد:

- تستطيع قطعة الخردة هذه محاكاة أكثر من تريليون وحدة عصبية... لقد كان من أفراد عائلة كثير من الناس.

رفع بصره كأنه يبحث عن شيء آخر، حتى وقع نظره عبر النافذة الزجاجية على مبنًى مميزٍ في الخلاء، تحيط به بعض البنايات المتفرقة.

ثبت نظره عليه للحظة، ثم سأل الجندي الأقرب إليه بفضول:

- من يعيش هناك؟

تردّد الجندي قليلًا، ثم أجاب:

- تلك هي المدينة المنورة... وداخل ذلك الهرم، يدرب الكاهن الوسيطات.

ما إن نطق بتلك الكلمات، حتى بدت على وجهه علامة ندمٍ واضح، كمن أفشى سرًا لم يكن من المفترض البوح به. أشاح بنظره عن يوشيرو، محاولًا تدارك الأمر، لكن الفضول كان قد اشتعل في الأخير.

- تدريب الوسيطات؟ كم من وسيطة هناك؟ - سأل يوشيرو بسرعة.

نظر الجنديان إلى بعضهما لوهلة، كأنهما يتفاوضان بصمت على مقدار ما يمكن الكشف عنه. لكن يوشيرو قطع لحظتهما المرتبكة عندما حاول رفع الروبوت بمفرده، فسقط منزلقًا. عندها طلب من كريم أن يساعده في رفعه ووضعه على ظهره.

لم يكن ليدع اكتشافًا ثمينًا كهذا خلفه.

******

اقتربوا من المدينة. هرم شامخ تطوف حوله بنايات، منها ما هو شاهق، ومنها ما يتوسّط في العلو. بدا أحد الجنديين منزعجًا من صوت موسيقى صاخبة تنبعث من سيارة يوشيرو التي شغّل مذياعها أثناء محاولته التقاط إشارة لاسلكية.

لكن انزعاج الجندي لم يدم طويلًا، إذ سرعان ما انتبه يوشيرو وأوقف المذياع، وهو يضيّق عينيه محاولًا التحقق من شيء يتحرك بين الأشجار الكثيفة القريبة منهم.

فجأة، ظهر كائن يشبه الكنغر يقفز بسرعة نحو مدخل المدينة. أحد الكائنات الهجينة التي كان جنود الطرف الآخر يمتطونها في المعركة. يبدو أنه نجا وهرب من القتال... ومن كيوي.

ركض الكائن بجنون، حتى اصطدم بحائط خفي من البلازما، فاختفى نصفه على الفور، بينما سقط النصف الآخر على الأرض، ينبعث من أحشائه دخان يشبه دخان الشواء.

لم يبدُ على أحدهم الفزع، بل استمتعوا بالمشهد، خصوصًا كريم، الذي صرخ بدهشة طفولية.

سأل يوشيرو، وهو يحدّق في موضع الحائط:

- هل يحيط هذا الحاجز بالمدينة كلها؟

فأجابه الجنديان في الوقت نفسه:

- نعم.

وتابع أحدهما، بينما كان الآخر يركض بحصانه نحو شجرة قريبة:

- مدخل المدينة ما يزال على بُعد كيلومتر.

وصل الجندي إلى الشجرة، نزع اللحاء الذي بدا تمويهًا، ثم ضغط على بضعة أزرار بعد أن انتظر لحظة، متعمّدًا أن يراه الضيوف داخل السيارة بإعجاب، وفورا، فُتِحَ الحاجز، بصوتٍ يشبه صرصرة الريح.

عاد الجندي إلى المجموعة، بينما كان الآخر يجرّ ما تبقى من جثة الكائن ليُخفيها داخل الغابة. بعدها، انطلق الجنديان خلف سيارة يوشيرو بسرعة.

مرت بضع دقائق على ابتعادهم عن الشجرة، لينطلق مجددًا صوت الصرصرة، معلنًا عن إعادة تفعيل "حائط الموت".

كان الهرم الرباعي الأوجه يرتفع نحو مئتي متر، يرتدي طبقة من الأعشاب الخضراء، و تتناثر على جنباته شجيرات بيضاء صغيرة. تتوزع فتحات دائرية على حيطانه، ولا يبدو له مدخل سوى بابٍ صغيرٍ تحت قمته، يظهر على عتبته عشٌّ كبير لطائرٍ ما.

لم تبقَ من البنايات التي تحيط به سوى الأساسات والحيطان المهدّمة.

وقفوا، وعمَّ صمتٌ يتخلله صوت علب على الأرض يلعب بها البرد. قاطعه طائر صغير لا تناسب حدة صوته حجمه ولا حجم عشه، يطوف حول العش في القمة.

نزل يوشيرو وكريم من السيارة، يتأملان جمال الهرم الذي يظهر جليًا عند مقارنته بالمباني المحيطة به. توجه جندي نحو شاحنة مركونة بجانب مبنى، وفتح أحدهما بابها الخلفي ودخلها، ثم أشار إلى يوشيرو وكريم بالقدوم، بينما ذهب الآخر نحو مستودع يتجه نحوه الحصانان دون مرافقة.

أغلق الجندي باب الشاحنة بعدما دخل الجميع. تشنج كريم قلقًا:

- ت ت ت ت توفير ثدي المعاناة ك ك ك لب كلب كلب.

ضحك الجنديان عليه بخجل، بينما فتحا معًا بابًا في أرضية الشاحنة، التي فاضت فجأة بنور أبيض ساطع قادم من نفق تحتها.

نزل الجنديان أولًا على السلم، تبعهما كريم ثم يوشيرو. بدا النفق غير منتمٍ لديكور العالم فوق الأرض، بحيطان ناصعة البياض وأرضيةٍ رمادية، نظيفًا وأنيقًا. لم يستطع يوشيرو أن يميز ما إذا كان هذا الممر يذكره بفندق فضائي احتفل فيه يومًا بعيد ميلاده الثامن عشر، أم الممرات داخل الأبراج السكنية حيث تعيش النخبة على القمر.

مشوا الأربعة في صمت حتى وصلوا إلى غرفة مستديرة، بها بابان يبعدان عن بعضهما. فسأل يوشيرو:

- أين نحن بالضبط؟

أجابه أحد الجنود، متجهًا نحو الباب على يمينهم:

- نحن الآن تحت، داخل الهرم السفلي، في طريقنا إلى المدينة المنورة.

سأل يوشيرو متعجبًا:

- لماذا هذا الاسم؟ المدينة المنورة؟

قاطعه الجندي الآخر قبل أن يتكلم زميله:

- احتفظ بهذا السؤال، سيد أوشيرو، إلى حين وصولنا عند الكاهن، هو من يعرف أكثر.

لم يكترث يوشيرو لنصيحة الجندي التي بدت أمرًا، ولا لنطقه الخاطئ لاسمه. أراد السؤال من جديد، لكنه تذكر شيئًا، فالتفت إلى كريم وقال:

- دع كل الحديث لي عندما نصل عند الكاهن، لا تقل شيء.

أومأ كريم برأسه موافقًا، واستمر في المشي.

ما تزال في ذهن يوشيرو أفكار خاطئة تعلّمها في طفولته عن سكان الأرض قديما، وكيف كانوا يضحّون بالأطفال، ما جعله، دون وعي، يحاول حماية كريم في كل الظروف.

وصل الأربعة إلى غرفة مستديرة أخرى، لكنها كانت أكبر هذه المرّة، وبداخلها أربعة ممرات. دخلوا من باب في أقصى يمينهم، واستمروا في السير نحو غرفة أخرى، تحتوي على ستة عشر بابًا. ثم خرجوا منها عبر باب في أقصى اليمين مجددًا.

طال بهم المشي داخل هذا الممر، حتى بدأ يوشيرو يتساءل عن كيفية مرور كل أولئك الجنود عبر هذه المتاهة، فسأل:

- هل توجد طريق أخرى تؤدي إلى المدينة؟

أجابه الجندي:

- نعم، لكن عبر هذه الممرات نفسها، وفق ترتيب محدد.

سأل يوشيرو مستغربًا:

- كيف؟

أجابه الجندي موضحًا:

- مثلًا، إذا دخلت من الباب في أقصى اليمين، ثم أكملت من باب عشوائي، سينقلك الطريق إلى البحيرة، بعيدًا عن هنا. هناك نظام محدد للأنفاق التي تؤدي إلى غرف الجنود والعائلات... إنها متاهة، تبقي الدخلاء خارج المدينة.

واستمروا في السير، في ممر طويل، جعل يوشيرو يسترجع ويرتب ذكريات هذا اليوم المشحون بالأحداث... يومٌ بدا له كدهرٍ، وفجأة، تسلّل إليه ذلك الإحساس المألوف: أنه نسي شيئًا ما.

رجع بذاكرته إلى الصباح، مستلقيًا في سريره، يشاهد مايو تغادر غرفته بعينين ناعستين.. يعود للنوم قليلًا.. ثم يستيقظ.. يخرج من المنزل.. يحلق.. تتحطّم المركبة.. يظهر العملاق.. ثم المعركة.

تتسمّر عيناه لوهلة وهو يتذكّر: الظرف. نسي الظرف في السيارة.

ربما سيعرف كيوي شيئًا عنه، لكن لا وقت للعودة الآن، خاصةً وقد بدأ يشمّ عبيرًا جميلًا يشي باقترابهم من نهاية النفق.

التفت أحد الجنود مبتسمًا نحو يوشيرو:

- وصلنا.

يستطيع يوشيرو رؤية الجندي الآخر يبتسم أيضا حتى أذنيه، كأنهما يحتفلان بحظ ظفرا به... رحلة مجانية إلى هذا المكان.

كان شعورًا جميلًا، نادرًا، خفيفًا، اعتراهم جميعًا في لحظة صامتة.

خطا يوشيرو خارج الممر، وعلى الفور شعر بذبذبات عالية ومثيرة تسري في جسده كله بقشعريرة.

رمى بصره في الأرجاء، أربع أشجار بألوان مختلفة موزّعة في الأركان، عشبٌ أخضر وزهورٌ مشعّة وغريبة تغطّي الأرضية كلّها، وطبقات متراصّة عموديًّا من الغرف المكعّبة تنتشر بتناسقٍ جميل، وفي وسط الساحة بالضبط تنتصب شجرة شامخة تمتدّ حتى أعلى الهرم، تتدلّى من أسفل أحد أغصانها أرجوحة يجلس عليها طفل صغير، أصلع، مبتسم، يرتدي رداءً أبيض ويراقب الزوّار الجدد.

بدأت فتيات بالخروج من الغرف المكعّبة، ذواتُ شعرٍ أحمر ذهبيّ وبشرةٍ بيضاء، يرتدين ثيابًا رقيقة ورديّة اللون، يبدون قابلات للأكل من شدة الألق والملاحة.

ما إن وقع بصر يوشيرو على إحداهن، حتى أحسّ بطعم حلوى الخطمي في فمه. نظر إلى الجنديين وكريم، فوجدهم يتلمّسون شفاههم بأصابعهم، كما يفعل هو تمامًا قبل أن ينتبه ويتوقّف.

سحرٌ وغرابة يطغيان على المكان.

استجمع يوشيرو رباطة جأشه، وسأل الجندي مشيرًا بعينيه نحو الطفل على الأرجوحة:

- الكاهن؟

لم يجبه الجندي، بل اتجه بخطوات واثقة ومحترمة نحو الطفل الصغير الجالس على الأرجوحة. وما إن اقترب منه جلس على ركبتيه أرضا، نزل الكاهن، همس له بالقرب من أذنه شيئا ما وأشار إليه بالانصراف، والابتسامة لا تفارق محيّاه. ثم تقدّم نحو يوشيرو وكريم، حتى وقف على بُعد خطوات منهما، محافظًا على ابتسامته الهادئة، وبدأ يغني بصوت عذب بريء يليق بخدّيه المنتفخين.

نظر كريم إلى يوشيرو، كأنه يحاول التأكد من أنه ليس الوحيد الذي يرى هذا المشهد العجيب، بينما ظل يوشيرو واقفًا، يصغي إلى غناء الكاهن كما لو كانت أنشودة ترحيب خفيّة. انتهى الغناء.

حرك كريم يديه يهمّ بالتصفيق، قبل أن يتوقف عندما سمع يوشيرو يسأل:

- ما هذا المكان بالضبط؟

صمت الكاهن لحظة، ثم رفع بصره نحو قمة الهرم، وقال بصوت رقيق مفعم بالظرافة:

- يشبه كثيرًا المكان الذي كُتب لك أن تكون فيه... أليس كذلك؟

ثم التفت إلى يوشيرو وأردف:

- لكنك هنا من أجل أجوبة... لأسئلة لم تطرحها بعد.

وصمت قليلًا، راسمًا على شفتيه ابتسامة ذكية، ثم استرسل وهو يدور متجهًا نحو الشجرة:

- أليس كذلك؟

لم يُجب يوشيرو، بل لم يتعلّم بعد كيف يعتاد على سماع كلام كهذا يخرج من فم طفل صغير.

تقدّم الكاهن نحو إحدى الفتيات الواقفات أمام غرفهن، وهمس لها بعينيه، فاتجهت نحو كريم. طلبت منه مرافقتها، وأخذت بيده ودخلا الغرفة، بينما واصل الكاهن سيره، يتبعه يوشيرو.

وصلوا إلى مقاعد حجرية وجلسوا، ثم بُوغت يوشيرو بسؤال:

- ماذا تريد أن تفعل الآن؟

لمع بصر يوشيرو نحو الشجرة الضخمة في الوسط، وأخذ يعيد صياغة السؤال داخله في شكل خواطر باطنية سريعة متلاحقة:

- ماذا أريد أن أفعل؟ ماذا تريد أن تفعل الآن؟ ما الذي ينبغي أن أريده الآن؟

كأنه ينتظر صوتًا داخليًا ليجيبه، كأنه شخصية تائهة داخل قصة تلاحق قلمًا مراوغًا لتسأله عن غاية وجودها. لكن شيئًا ما في وجدانه يمنعه من الاستقرار. ثم يجيب أخيرًا:

- كنت أريد أن أذهب إلى منزلي، على المريخ، لكن يبدو أنني سأحمل بعض المتاعب معي.

ابتسم الكاهن متأملًا منظر أميليا وهي تخرج من أحد الممرات، تُصفف خصلات شعرها خلف أذنها، وغمغم ممازحًا بنكتة يعلم أن لا أحد سيفهمها سواه:

- ستغادر بمتاعب أكثر مما تظن.

لم يلاحظ يوشيرو اقتراب أميليا من مجلسهم، فسأل الكاهن:

- أخبرني، كم عمرك حقًا؟
- مئة وخمس عشرة سنة، تجيب أميليا. أليس كذلك، يعقوب؟

وقف يوشيرو، يمدّ يده إلى أميليا، تتساءل تعابير وجهيهما في حوار خفي عن سبب هذا الشعور المألوف بينهما، يقاطعه يعقوب:

- يوشي، لا بد أنك جائع. هل يُغريك الانضمام إلى مائدة العشاء الليلة؟

يوافق يوشيرو، ويرافقهما نحو ممر.

بعد الاطمئنان على كريم، يمشي خلف أميليا داخل الممر المضيء، لا يرى مصدر الضوء، فيلاحظ أن الممر مطليّ بالكامل ببودرة مشعة؛ تكنولوجيا قديمة كانت أمه تحكي عنها في قصصها عن الأرض قبل الكارثة.

وفي خضم سيره خلف أميليا لم يستطع مقاومة اختلاس النظر إلى قوامها، متوسطة القامة، رشيقة، ترتدي لباسا ضيقا قديم الطراز، بينما تبدو طريقة مشيتها كأنها دليل على علمها بملاحظته.

يشعر أن عليه أن يقول شيئًا حيال هذا الشعور المألوف تجاهها، لكنه لا يعرف من أين يبدأ، خاصة بعد يوم طويل كالذي مرّ به.

"المرض"، كما يسميه الجميع، سواء على المريخ أو القمر أو حتى الأرض، هو داء من نوع مختلف. ظهر بعد تفجيرات 11/11، وينتشر عبر الأثير لا الهواء، ويصيب الروح والعقل بدل الجسد. حين يُصاب به المرء، يبدأ برؤية أشياء لا وجود لها، ويشعر بأحاسيس غير مبررة، وقد يتفاقم الوضع إلى درجة محاولة الانتحار.

هذا على الأقل ما كانت الفدرالية تروّجه، والانطباع الذي حرصت على ترسيخه في أذهان الناس. حتى يوشيرو، رغم شكوكه، كان يميل إلى تصديقه. أما الحقيقة، فهي معقدة الأطراف لكن بسيطة المبدأ.

"المرض" في يد الفدرالية ليس مجرد وباء، بل أداة دعائية بارعة، سلاح نفسي يُستعمل لتوجيه الشعوب المصدومة الخائفة الناجية من الحرب العالمية الثالثة والكوارث الطبيعية. والسيطرة على وعيهم.

تستخدم الفدرالية فكرة المرض نفسها غطاءً مثاليًّا لبث الخوف وتشكيل السلوك العام، وتنسج حوله روايات تختلف باختلاف الكوكب.

على القمر، روجت لفكرة أن المرض يصيبك عند لقائك بما سموه بـ"يوردج" -كائن هلامي رمادي، يظهر من العدم- ويتفاعل مع الناس غالبًا بدفعهم إلى تتبعه حتى يعثروا على كتيّب فيه تعاليم تجعلهم يفعلون أشياء غريبة من بينها محاولة الانتحار.

أما على الأرض، فالرواية الرسمية تقول إن المرض ينتقل عبر الهواء، وإن "المصل الحيوي" هو الترياق الوحيد للنجاة من الجنون والموت.

في الواقع لا تقتصر الفدرالية -خصوصًا على الأرض- على ترويج الإشاعات فحسب، بل ترسّخ الاعتقاد بأهمية "المصل الحيوي" بدعم الطوابير الخامسة وافتعال حروب بالوكالة، حيث تتنافس الفصائل المدعومة على سرقته من بعضها والمتاجرة به كما لو كان نفطا. أما في المريخ، فرغم محاولات الفدرالية، لم تلقَ هذه الرواية إلا صدى ضعيفًا، إذ لم يصدّقها إلا قلة نادرة.

يوشيرو يؤمن بوجود المرض. يصدّق رواية الفدرالية حين تزعم أن له علاقة بالكائن الرمادي والكتيّب الذي صادفه في ذلك المستشفى الفضائي المهجور. لكنه، وعن طريق أبحاثه الخاصة أيضا، بات يعتقد أنه توصل إلى حقيقة مخفية: أن المرض له نفس عيد ميلاد الفدرالية نفسها، وأن الجميع مصاب به بدرجات متفاوتة. فأثناء أحد اختراقاته لنظام القمر، صادف في أرشيف "ويب 3.0" ملفًا مطموسًا بعنوان قديم: "عتمة شيفر". الاسم وحده كان كافيًا ليوقظ فيه حماسا جعله يقضي بضعة أسابيع منهمكا في دراسة كل ما في الملف. لم يُذكر فيه مرضًا بل طفرةً، قفزة مفاجئة في الوعي البشري، ارتقاء روحي متجاوز، من ذلك النوع الذي طالما تنبأت به الباطنية في القرن العشرين. العائلات الحاكمة -كما ورد في تلك الوثائق- رأت فيه تهديدًا، لم يكن ممكنًا السيطرة على من يمتلك هذا النوع من الوعي، فكان لا بد من

إعادة صياغته: تحريفه إلى وباء، ربطه بأعراض غريبة، وترويج مصلٍ يقمعه. من هناك، فصارت ظواهر مثل التخاطر، والاستبصار، والتفاعل مع العوالم غير المرئية تُصنّف أعراضًا مرضيةً تستدعي الحجر الصحي، علّمت الفدرالية بالخصوص من لم يحصل عليها ولا يفهمها أن يخاف من هذه العلامات، وأن يطمع في جوائز التبليغ عنها، حتى غدا الناس يترصّدون بعضهم بعضًا، ويشي الواحد بالآخر. كما كشفت الوثائق أن مئات الملايين من البشر الذين اختفوا في الأيام الثلاثة المظلمة كانوا كما يُفترض أول حاملي هذا الفيروس.

ما غفله يوشيرو هو أن دهاء الفدرالية يفوق الخيال، فهذه الملفات السرية التي صدقها بحماس - لأنها تطلبت فقط منه جهدًا كبيرًا في البحث وفك الشيفرات- لم تكن سوى معلومات مضللة مزروعة وأدلة زائفة، كانت نسيجًا من الحقائق المتداخلة بالأكاذيب، كانت كلها جزءًا من قاعدة بيانات ضخمة تضم عشرات آلاف الروايات المتنوعة المنطقية لكن غير حقيقية التي حبكتها ذكاءات الفدرالية الاصطناعية، ومخبأة بعناية في أعماق بطن الوحش، حيث يتسلل الباحثون عن الحقيقة على أطراف أصابعهم، وفقط حدث أن كانت تلك الرواية من نصيب يوشيرو ذلك اليوم.

تابع الجالسون على المائدة يوشيرو وهو يدفع بالطعام إلى فمه بنهم، يصدر صوتا غريبا، مواء وتنهد. لم يكن جائعا حقا، لكن مذاق الطعام فاق كل توقع، ولم يذق شيئًا يشبهه منذ أن طبخت له أمه آخر مرة.

كان يدفن وجهه في الأطباق كأنه ينتقم من سنوات من الحبوب القمرية العقيمة، تلك الكريات التي تفتقر للرائحة والطعم، ولا تشبه أي شيء يستحق أن يُؤكل.

وفي خضم تلك النشوة، راوده خاطر غير مألوف: ربما يمكنه أن يعتاد الحياة على الأرض. الموسيقى تملأ المكان بعذوبتها، والطعام له طعم، والجو يحمل شيئًا من دفء الحياة. كل شيء هنا بدا... طبيعيًا.

كان كريم يتحدث مع أحد القادة العسكريين. بدا الحديث في ظاهره ودّيًا، لكنه يحمل نبرة تحقيق مستترة.

شدّ انتباه أميليا ويوشيرو، فانضما إليه بصمت. في زخم الحديث، غاب عن كريم أنه لم يتعرض لأي نوبة منذ دخوله الهرم. وعندما سأله القائد سؤالًا مباشرًا، أجاب بعد لحظة تردد خفيفة:

- لا أعرف كثيرًا، لكن أذكر أنه حين جاؤوا بنا من معسكرات اللاجئين، رأيت ساحة ضخمة عند سفح الجبل، كانت مليئة بآلات متهالكة، مجرد خردة. وأعرف موقع مخزن الغاز الحيوي أيضًا... أليس هذا ما تبحثون عنه؟

قالت أميليا بدهشة:

- لماذا نسعى إلى الغاز الحيوي؟ من قال لك هذا؟

يجيبها كريم بأن هذا ما أخبروهم.

عندئذ طلب منه يوشيرو أن يحكي لهم عن التجنيد الإجباري من طرف الفدرالية القمرية.

وقبل أن ينتهي كريم من بوحه، همست أميليا لنفسها: "الكاهن كان على حق... تُرِكنا هنا لنصفي بعضنا."

وقفت تفرك جبهتها بتوتر، ثم حدّقت في وجه يوشيرو بصمت، وسألته:

- ما رأيك؟

أخذ يوشيرو نفسًا عميقًا، كمن يبحث عن طرف خيط في ذهنه، ثم قال:

- الأمر معقد قليلًا، على ما يبدو... الفدرالية تحاول التملّص من جرائمها عبر تحريضكم على التقاتل. أعتقد أنهم وراء الهجمات سرقة الغاز الحيوي من دول الجنوب. من المرجّح أنهم زرعوا طابورًا خامسًا هناك، ثم لفّقوا التهمة لكم. بهذه الطريقة يمنحون الناجين من تلك الدول مبررًا للحرب ضدكم... والانتقام."

ساد صمت ثقيل في المكان. الجميع كان يُنصت ليوشيرو بوجوه حائرة ومتأملة. استرسل:

- لكن الفدرالية لم تنجح في خداع سكان المريخ، يعلمون بوجودكم، ويسعون للحصول على تكنولوجيا القمر الآلية لنقلكم إلى هناك.

سأل أحد الجالسين:

- سمعنا أنهم ما يزالون يحاربون الفدرالية، هل هم أقوياء؟

يجيب يوشيرو:

- ما يزال هنالك ثوار في بعض المناطق، ومن المعروف أن الحرب معهم اندلعت لأنهم رفضوا الالتزام بشروط الخدمة، ولأنهم يريدونكم أنتم على المريخ. لكن هذه الأسباب لا تكفي لتبرير ضراوة تلك المعارك بين الثوار والفدرالية.

في تلك اللحظة، ظهر الكاهن.

تحمله امرأة في حضنها، يلبس بذلة رسمية أنيقة. وضعته بلطف على كرسي قريب من يوشيرو، كريم، وأميليا، بينما تحلّق الباقون من حولهم. جلس بصمت، وأشارت أميليا إلى إيقاف الموسيقى.

خفتت الأنغام، وساد هدوءٌ لا يقطعه إلا همسات متناثرة.

ابتسم الكاهن ليوشيرو، كأنّه يعرف أنه لن يفهم تمامًا ما سيقوله للتو:

- الحرب كالحب يا يوشي... الهدف من وجودها، هو نفسه الهدف من غيابها.

ثم التفت نحو أميليا، وحدّق فيها بعينين مثقلتين بالمعرفة، وأضاف:

- لقد حان الوقت يا صغيرتي.

رفع صوته قليلًا، مذكرًا الحضور بلطف أنه يعيش داخل جسد طفل:

- استعدوا، سنرحل عما قريب.

كانت حالة يعقوب الغريبة نتيجة أولى الاختبارات الجينية التي أُجريت قبل عقود من الزمن، حتى قبل حدث عام 2040. وُلد داخل رحم آلة، وتحدث في غضون ساعاته الأولى. كان ذلك قبل الانفجار، وبعده هربته إحدى الممرضات من المختبرات التي كان يعيش فيها أثناء الأيام الثلاثة المظلمة التي شهدتها الأرض. اعتنت به بقية حياتها، ثم بعد وفاتها، وجد طريقه إلى المدينة المنورة، واتخذها ملجأً له، قبل أن ينضم إليه باقي الناجين والتائهين.

منذ لقائهم بيعقوب أخبرهم أن الهرم في الأصل مركبة فضائية، مكوّنة من هرمين رباعيّي الأوجه متقاطعين، وهم ينتظرون الفرصة المناسبة لمغادرة الأرض التي لم تهدأ زلازلها ولا أعاصيرها ولا فيضاناتها، فضلا على الهجمات المستمرة عليهم من سكان الجنوب، حيث كان يعيش كريم وباقي اللاجئين الذين جمعتهم الفدرالية في أرض واحدة تحت راية واحدة، لتسهيل تكييفهم وبرمجتهم. ولم يكن ما يمنعهم من الرحيل سوى عجزهم عن تشغيل هذه السفينة. ولهذا السبب كانت أميليا متحمسة جدًا لظهور يوشيرو، المهندس القادم من القمر، على أمل أن يساعدهم في تشغيلها. ومرّت سنوات بنوا في أثنائها تحت الهرم العلوي ممرات ومساكن اختبأوا فيها. كان على الأرض كثير من الأهرامات، اختبأ داخلها الناس زمن الزلازل والحروب. لا يُعرف كثير عمن

بناها، لكن المبنى الذي وصل إليه يوشيرو هو الوحيد الذي ما زال يسكنه البشر. لم يبقَ منهم سوى ما يقارب ألف شخص يصارعون من أجل البقاء، ويحلمون بيوم تشتغل فيه المركبة الهرمية وتبعدهم عن الدمار والألم.

كان ليعقوب سبب إضافي وأفضل لمغادرة الأرض. كان يعلم أن انفجار 11/11 أحدث جرحا عميقا في الأرض. بدأت أولًا الزلازل بزحزحة محورها، ثم اقترب قطباها المغناطيسيان من الانقلاب التام، وأصبح جنوبها شمالًا وشمالها جنوبًا. وكان يعقوب يؤمن أن الأرض ستبتلع من عليها، وتلد من جديد. لم يكن يعقوب الشخص الوحيد الذي يظن هذا؛ حكماء الفدرالية أيضًا، وحتى الأركاين على المريخ، فقدوا كل الأمل في الاستمرار فوق الأرض.

ينقسم معسكر الثوار هو الآخر إلى حزبين: حزب يريد التخلص من سلطة الفدرالية، والرجوع إلى الأرض لإصلاحها ومصالحتها، وحزب يريد التخلص من الفدرالية ونقل سكان الأرض إلى المريخ، لاعتقادهم بفوات الأوان على مصالحة الأرض. الأول يخضع لقيادة الفدرالية في السر، رغم أنهم الأكثر "ثورانًا" والأشهر في معاداتها. والحزب الثاني قبائل يقودها من تبقّى من الأركاين،

وهي فئة بشرية مختلفة عن باقي البشر في التركيبة الجينية. ابتدأت أول موجة ظهورهم بداية طبيعية داخل عنابر مستشفيات المريخ، في أولى الولادات التي حدثت على الكوكب بعد تعميره بالبشر لأول مرة. أما سكان القمر، من الموظفين والعاملين لدى الفدرالية وعائلاتهم، فقد كان الغاز الحيوي كفيلًا ببرمجتهم على الطاعة العمياء. وكل من يتوقف عن استهلاكه، من المعروف بينهم أنه ينتهي به المطاف بأمراض عقلية وخلل نفسي.

لكن ذلك لم يمنع من ظهور جماعة سرية في القمر، وقعت ضحية لإحدى "الحقائق" المزيفة التي زرعتها الفدرالية داخل أرشيفاتها. وكان معروفًا، بل من عقائد أتباع هذا التنظيم، أن الامتناع عن استهلاك الغاز الحيوي يُعيد إليهم مهارات فقدها البشر في "السقوط الثاني" في 2040، ويمنحهم قدرات نفسية خارقة، تمكّنهم من رؤية "ديميورغ" - الكائن الفضائي الذي أُسقِط من بُعده الخامس إلى البُعد الرابع بسبب 11/11 - مما جعله أقرب إلى البُعد البشري الثالث وسهّل التواصل معه. وقد أصبح ديميورغ من المقدسات لدى هذه الجماعة السرية التي كان يوسف ويامادا من بين أعضائها في زمن مضى.

عمت أجواء بهيجة في المدينة، كأن الجميع على موعد مع رحلة إلى الجنة. ثم هدأت الأصوات والضحكات شيئًا فشيئًا ليحلّ وقار الليل. خرج يوشيرو من الغرفة المخصصة له، وسار في ممر يقوده نحو الشجرة الضخمة حيث التقى بيعقوب لأول مرة. لم يستطع النوم.

لمح أميليا تجلس على الأرجوحة، يداعب ضوء القمر المتسلل من الفتحات شعرها. كانت ترتدي معطفًا أسود فوق لباس نوم وردي، يشي بأنوثة مكبوتة. اقترب منها، ووقف بجانبها، يلهو بورقة شجرة قطفها في طريقه. رفعت أميليا عينيها نحو القمر، تنظر إليه من الباب الصغير أعلى الهرم، ثم سألت يوشيرو بنبرة ناعمة، لا تشبه بتاتًا نبرتها في ساحة المعركة:

- كيف الحياة على القمر؟

صمت يوشيرو، يبحث عن جواب موضوعي ومنصف. فهي تسأل عن الحياة هناك، لا عن حياته هو هناك. لكنه أجابها:

- متعبة... وبلا معنى.

نظرت إليه، كأنها تبحث في وجهه عن أثر لهذا التعب، ثم قالت مبتسمة:

- أتعرف؟ أظن أن أبي هناك.

سألها يوشيرو، على أمل أن يعرفه:

- ما عمله؟

أجابته:

- لا أعرف، كنت صغيرة عندما اختفى.

فسألها:

- وماذا عن والدتك؟

لتجيب بكل هدوء واختصار:

- ماتت... في حرب.

جلس يوشيرو على كرسي حجري بجانب الأرجوحة، صامتًا. هم بسؤالها عن ساحة المعركة، وقبل أن ينطق، قاطعته:

- قلت إنك كنت في طريقك إلى المريخ... لماذا؟

تراجع قليلا مستوعبا وأجاب:

- ولدت هناك، وعشت فيه حتى وفاة أمي. ثم غادرت إلى القمر لأدرس، وانتهى بي المطاف أعمل في مصنع آلات.

توقف قليلا، ثم استرسلا في حوار:

- تركت عملي في الحقيقة.

تسأله مستغربة:

- لماذا؟
- لا أعرف، ربما تعبت.
- تبعت من العمل؟ العمل متعب لهذه الدرجة هناك؟

فتغيرت ملامح وجهه عندها تغيرًا يوحي بأنه سيتعين عليه كثير من الشرح جعل أميليا تغير سؤالها بنبرة ممازحة:

- هل لديك حبيبة في المريخ؟

ابتسم يوشيرو وأشار نافيا برأسه ثم قال:

- أخبريني المزيد عن والدك.
- آه، تذكرت، لدي صورة له.

ثم أخرجت قلادة من بين صدرها، وفتحتها لتعرض صورة هولوجرامية لرجل يلعب مع فتاة صغيرة. كان كثيف اللحية،

طويل القامة، بيده اليمنى الاصطناعية، يضع يده الأخرى على خد الفتاة ويضحك.

اتسعت عينا يوشيرو وهو يحدّق في الصورة، يركز جيدًا في ملامح الرجل، ثم ارتفع صوته فجأة:

- يوسف!! هذا يوسف!!

انتفضت أميليا، قافزة من فوق الأرجوحة:

- أجل! هذا اسمه! أتعرفه؟! أبي؟! ما زال حيًّا؟! هل هو؟! انظر جيدًا... هل أنت متأكد؟!

أجابها، مبتسمًا، وما زال أثر الدهشة على وجهه:

- أأعرفه؟! لقد تحدثت معه الليلة الماضية!

نظرت إليه أميليا، تحاول أن تنطق، مختنقة بالدموع. فأردف بلطف:

- سيسعد كثيرًا برؤيتك... يظن أنك ميتة.

تسارعت أنفاسها واقتربت من يوشيرو، مطأطئة الرأس، تحاول إخفاء دموعها. ثم احتضنته بقوة. فجأة، شعرت بحرارة غريبة

تسري في حلقها، كأنها تغرق في ماء دافئ. تبعها صوت فرقعة داخل جمجمتها، ثم رنين قوي، وخارت قواها، فاقدة الوعي بين ذراعي يوشيرو.

هزّها برفق وصفعها صفعات خفيفة وهو ينادي بقلق:

- أميليا!! أميليا!! استيقظي!

استفاقت أخيرًا، مستلقية على العشب، تتنفس ببطء، وتحاول استيعاب ما حدث.

- بخير؟

اعتدلت في جلستها، وقالت:

- لا أعرف ما الذي حصل... لم يحدث لي شيء كهذا من قبل لكني بخير الآن.

- ربما مجرد تعب... عليك أخذ قسط من الراحة.

ساد بينهما صمت لبرهة، تستجمع فيه أميليا نفسها

- أحقا أبي ما زال حيا؟

أشار يوشيرو نعم برأسه مبتسما، بينما تضع هي يدها على فمها من البهجة والصدمة.

صرف يوشيرو بصره يتأمل أركان الهرم حولهم:

- سفينة فضائية إذًا... من بناها؟

أجابته أميليا:

- لا أعرف.

انتظرت لحظة، ثم أضافت:

- حتى الكاهن لا يعرف.

ثم ازدادت نبرتها حدة فجأة، كأنها تذكرت شيئا، حدة شوقها إلى لقاء أبيها، واحتمال فرصة الذهبية التي منحها لهم القدر بقدوم يوشيرو:

- عليك مساعدتنا لتشغيلها يا يوشيرو، حتما ستعرف كيف، عليك المحاولة على الأقل.

رفع يوشيرو يده يحك قفاه مترددا:

- لست متأكدا، فأنا لست ملما كليا بالتكنولوجيا القديمة.

ثم نظر إلى أعين أميليا يختفي منهما البريق الذي كان يلمع، واسترسل:

- لكن سأحاول، أعدك، سأبذل ما في جهدي.

وعاد البريق داخل أعينها سرح فيه يوشيرو قبل أن توقظه وتطلب منه أن يحكي لها أكثر عن أبيها وعن القمر، فاستلقيا هناك على العشب يتحدثان طوال الليل، في سمر لذيذ.

وحلت عليهما سكينة، استرخى يوشيرو في أثنائها ولم يستطع سوى الغرق في نوم سلس على العشب بجانب الأرجوحة، لم تلاحظ أميليا نومه، أخذت نفسا عميقا شجاعا وقالت:

- شيء آخر، لماذا تبدو مألوفا؟ هل لأن ال...

يجيبها صوت شخيره، جعلها تبتسم خجلا، ثم وجهت بصرها عاليا نحو القمر تتخيل لقاءها بأبيها.

تنهدت ووقفت، همت بأن توقظ يوشيرو لينام في غرفته، ثم فضلت أن تتركه، يبدو مرتاحا في مضجعه، واتجهت نحو إحدى الممرات المتصلة بالغرف حيث غرفتها.

أميليا هي الابنة الوحيدة ليوسف. دفعتهما الحروب نحو المدينة المنورة بعد وفاة أمها، وافترقت عنه بعد هجوم سكان الجنوب، وكان ذلك أول هجوم على المدينة، قبل اكتشاف حائط البلازما

الذي سيحميها أكثر لاحقا. غادر يوسف كوكب الأرض حينها، وقد اختفت ابنته في أثناء الهجوم بعد اختطافها.

قضت أميليا بضع سنوات من طفولتها مع سكان الجنوب، إلى أن ضلت طريقها ذات يوم في الغابة، وهناك وجدت بحيرة كيوي الذي أعادها بدوره إلى المكان الأكثر أمانًا الذي يعرفه، المدينة المنورة. ومنذ ذلك الحين، كانت تتردد مرارًا على كيوي لتلعب معه، وكانت الشخص الوحيد الذي يسمح له بالاقتراب منه.

ترعرعت أميليا وسط الجنود وعائلات اللاجئين في المدينة، حتى أصبحت قائدة عسكرية. قوية البنية، شجاعة، تقودها نزعة عميقة نحو السلام، وحفظ النظام والعدل. تفوقت على الرجال في البسالة والمهارة، رغم أنها مع ذلك كانت تمارس صرامتها بأنوثة ضامرة؛ ترتب شعرها أثناء القتال، تحرص على تناسق ألوان زيّها، وتمنح الأسرى فرص التوبة، تلون أسلحتها، وترفع شعار السلام قبل المعركة.

سكناتها تميل إلى الرزانة والحكمة، ويرجع الفضل في ذلك إلى يعقوب، الذي حرص على تعليمها كل ما يعرف. درّسها اللغات الميتة، وطقوس السحر الرياضي، والرياضات الروحية القديمة، والعلوم الباطنية، والتاريخ، وأحاطها بعناية خاصة. حتى إنه ابتدأ

تدريبها مع الوسيطات عندما بلغت سن الثامنة عشرة، رغم اختلافها الجيني عنهن، إلا أن ذلك لم يمنع إيمانه بقدراتها. علاقة يعقوب بأميليا قوية جدا، يثير وجوده الطفولي معها غريزة الأمومة بداخلها، كما يملأ في نفس الوقت فراغ غياب أبويها بنضجه وعطفه، كان يمثل نظام إعانة عاطفي عجيب لكن فعال.

مشت أميليا داخل الممر متثاقلة حتى وصلت بصعوبة إلى سريرها. استلقت عليه، ليعود ذلك الإحساس الغريب بالحرارة في حلقها. مدت يدها نحو كأس ماء على الطاولة المجاورة، لكنها سقطت أرضًا كالجثة، وجهها على البلاط البارد.

مرت ثوانٍ قليلة، ثم فتحت عينيها فجأة لتجد نفسها تطفو في فضاء الغرفة، تنظر إلى جسدها المدد على الأرض أمامها. لم تُصب بالذعر، كانت تعرف هذا الشعور جيدا وتألفه: إنها حالة إسقاط نجمي تلقائي في شكله النهائي، الذي درّبها عليه يعقوب سنوات عديدة دون أن تحقق نتائج مرضية، عليها فقط أن تهدأ وتستمتع بالوضع لأطول فترة ممكنة.

خرجت من غرفتها، تخترق الجدران بهدوء، تسبح في الممرات ثم إلى الحديقة حيث كان يوشيرو نائمًا. اقتربت منه مبتسمة، بدا وديعًا في نومه، كأن لا شيء في هذا الكون يمكنه أن يقلقه.

بالكاد تصدق أن قدراتها قد اشتغلت أخيرًا.

يبدو أن صدمة سماعها خبر أن أباها على القمر كانت الدافع الكافي.

طارت من الفرح، تجاوزت حدود الهرم محلقة في السماء، فكرت أن تذهب فورًا للبحث عن والدها، لكنها كانت تدرك أن الرحلة بجسدها النجمي محفوفة بالمخاطر. بدأت تسبح في الأجواء بانسيابية ومرح، إلى أن لفت انتباهها سيارة يوشيرو بجانب شاحنة المدخل، فدفعها الفضول للدخول إليها. حاولت تعديل وضعيتها حتى استقامت في وضع شبه قائم، وعيناها تتأملان الروبوت الذي كان يوشيرو قد عثر عليه في المصنع المهجور. فجأة، بدأت جمجمة الروبوت تشع بضوء أزرق فاتح يخطف الأنفاس. اقتربت أميليا منه مسحورة، شعرت بقوة غامضة تجذبها إلى داخله. حاولت المقاومة بذعر، لكن الإحساس بالغرق بدأ يطغى، ثم اجتاحتها قوة هائلة سحبتها، ثم... الظلام.

استفاقت على صوت رقمي داخل رأسها، يشبه تحطم زجاج يتساقط ببطء. نهضت بصعوبة، عاجزة عن رؤية أي شيء بوضوح، لا تدري إن كانت لا تزال في العالم النجمي، أم عادت إلى جسدها وقد فقدت بصرها. لكن صوت خطواتها داخل

السيارة بدّد شكوكها. فتحت الباب وخرجت، ألقت نظرة على يديها، على قدميها... ثم صرخت.

لقد تجسدت داخل الروبوت بطريقة ما.

بدأت تتحرك بخطوات مترددة، كما لو كانت طفلًا يمشي للمرة الثالثة. شعرت بتسارع في خفتها وسرعتها دون أن تفهم كيف. اتجهت نحو الشاحنة، لم تكن تراها كما اعتادت بعينيها البشريتين، بل كانت تشاهدها مصفوفةً من الرموز والأرقام الخضراء المتحركة، ومع ذلك، استطاعت إدراكها بوضوح غريب. فتحت باب الشاحنة، دخلتها، تتبع المسار نفسه الذي سلكه الجنديان مع يوشيرو وكريم. لم تكن منتبهة لسرعتها وخفتها الآخذة في الازدياد، حتى وصلت الحديقة. ما إن وصلت، حتى بدت لها الشجرة الضخمة كأنها عش نحل رقمي، تطن فيه الرموز والأشكال الهندسية المتحركة. رأت يوشيرو ما يزال نائمًا على العشب، فتقدّمت نحوه ببطء، حذرةً ألا تزعجه أو تفزعه. فهي نفسها بالكاد تستوعب ما يحدث.

اقتربت منه حتى أصبح لا يفصل بينهما سوى خطوتين، وتوقفت بجانبه تحاول استعمال تقنية عقلية علمها إياها يعقوب، فهدأت واسترخت، تتأمل الشجرة، بدأ يوشيرو عندها يتحرك متقلبا في

مكانه، أرادت الحركة لتبتعد عنه فلم تستطع، وأصاب الروبوت شلل مفاجئ. ليستيقظ يوشيرو مرتبكا، يحاول البحث عن حجرة أو قطعة غصن أو شيء ما ليدافع عن نفسه من هذا الظل الغريب الواقف أمامه، ثم يضيق عينيه ملاحظا تفاصيل الروبوت، اقترب منه ليتعرف عليه أكثر، ما زال وعي أميليا مسجون بداخله، لا تستطيع التحرر والعودة لجسدها أو الحراك، وعندما اقترب يوشيرو حذرا ووقف أمام الروبوت وجها لوجه، ارتسم تعبير غبي على وجهه أثار أميليا فابتسمت، فاقترب يوشيرو أكثر ليتأكد من ملاحظته لتلك الابتسامة التي ظهرت على وجه الروبوت ويلاحظ أيضا نقط عرق زادت عجبه، فباغتته أميليا وقبلته، ليدفع يوشيرو الروبوت مبتعدا، ويسقط هذا الأخير أرضا وتسترجع أميليا السيطرة على حركته، فوقفت، ثم قالت بصوت آلي رقمي في نفس الآن الذي يقول فيه يوشيرو:

- يوشيرو... هذه أنا... أميليا.

"أكانت تلك قبلة؟"... يفكر يوشيرو بينما يقترب من الروبوت متعجباً يسأل:

- أميليا؟!

هرعت هي نحو الممر المتجه لغرفتها بعدما أشارت له بيدها الآلية أن يلحق بها، وصلا إلى الغرفة، ووقفت أميليا بجانب الباب بينما يرفع يوشيرو جسدها عن الأرض ويضعه على السرير، تبدو شاحبة اللون وعيناها مفتوحتان خاليتان من الحياة، وجلس يوشيرو على حافة السرير ينتقل بعينيه من جسد أميليا إلى الروبوت الواقف بجانب باب الغرفة، وقبل أن يهم بالسؤال، تقول أميليا:

- أنا من الوسيطات الآن.

ثم يتغير صوت الروبوت بعدها إلى كلام غير مفهوم ويقع على الأرض، لتستيقظ أميليا بعدها داخل جسدها على السرير، وترتفع جالسة كأنها انتشلت للتو من عالم الأموات.

اقترب منها يوشيرو ماسكا يدها في دهشة:

- أميليا! ما الذي حدث؟ كيف فعلت هذا؟

ثم نهض نحو الروبوت يفحصه، وعاد إلى سرير أميليا التي جلست على حافته تحملق في الروبوت متعجبة:

- صدقني، ولا أنا أعرف ما الذي حصل، لكن يبدو أنني استطعت دخول هذا الروبوت باستعمال جسدي الأثيري.

ثم نظرت إلى يديها وأفلتت بعدها ضحكة انتصار قصيرة، وسكبت كأس ماء من قنينة بالقرب من سريرها وسألت يوشيرو:

- ماذا تعرف عن الوسيطات؟

جلس متربعا بجانب الروبوت المتكئ على الحائط مصدوما يرفع يديه بجانب كتفيه عوض أن يجيب.

تشرب أميليا سعادتها المضطربة مع كأس آخر من الماء بسرعة وتقول بينما تحملق في الروبوت:

- أحسستُ بالموت.

وقف يوشيرو يعيد تفحص الروبوت، وتذكر أنه ترك علبة أدواته في السيارة، أخبر أميليا بذلك على أمل أن تريه طريق العودة إلى فوق. فطلبت منه أن ينتظر إلى أن تشرق الشمس، وأن يأخذ الروبوت إلى غرفته ويأخذ معه قسطا من الراحة استعدادا ليوم الغد الحافل. غادر يوشيرو غرفة أميليا، يجر الروبوت والكثير من التساؤلات، وضعه إلى جانب الحائط ثم ارتمى على بطنه فوق سريره ينظر إليه قبل أن يغرق في نوم عميق. بينما يستلقي يعقوب على كرسي أمام أحد الغرف المكعبة داخل الهرم، في زاوية سمحت له برؤية كل ما حصل للتو.

المركابا

يجلس سيباستيان على كرسي مريح داخل مكتب قائد الأسطول الفدرالي السابع. وكلما طال انتظاره، ازداد انزعاجه. أصبح قادرًا على معرفة طبيعة المهام الموكلة إليه من مدة الانتظار وحدها. لا يريد أن يُبعث مجددًا إلى المريخ. فمنذ أن تولى منصب قائد العمليات الخاصة، وهو ينتظر بفارغ الصبر مهمة على الأرض.

دخل القائد بسرعة، متجهًا نحو كرسيه خلف المكتب، يتبعه عنصران أمنيان من الدرجة الثانية. استغرب سيباستيان وجودهما داخل سفينة الأسطول.

قال القائد بنبرته الصارمة المعتادة، دون مقدمات:

- سيباستيان، سنبعثك إلى كوكب الأرض.
- وصلتنا معلومات بوجود شخص مطلوب على الكوكب، ويُعد خطيرًا للغاية.

نظر إلى الشخصين الواقفين بجانب باب المكتب، ثم أردف:

- إنها مهمة من صنف "ج".

حدّق سيباستيان قليلًا في حاجب القائد المتصل، على أمل أن يمنع ذلك ظهور علامات الغبطة على وجهه، ثم قال:

- حسنًا، سيدي، لكنني سأختار فريقي الخاص.

نهض القائد قبل أن يُكمل سيباستيان كلامه:

- لك ذلك، ستجد باقي التعليمات عند كريستينا.

خرج سيباستيان مسرعًا إلى مكتب كريستينا، المرأة الأربعينية التي كان يوشيرو يناديها بـ "مايو" منذ لقائهما الأول في إحدى حفلات ذكرى الفدرالية. دخل وأغلق الباب على عجل، كأنه يدخل مرحاضًا، وهو يكبت سعادته كما يُكبت البول.

نظرت إليه كريستينا وعلى وجهها ابتسامة عريضة، ثم قالت:

- يجب أن نأخذ إيتا معنا. لن أتركها.

بدأ سيباستيان يمشي ذهابًا وإيابًا، يحك ذقنه ويفكر بصوت عالٍ:

- سنعيد التفكير في الخطة، ونتأكد من أنها مثالية هذه المرة. لا مجال للخطأ. هذه فرصتنا الذهبية.

أخذت كريستينا ملفًا من فوق مكتبها، واقتربت منه قائلة:

- خمن من الهدف؟

فتحت الملف على صورة وأرتها لسيباستيان:

- يوشيرو.

أخذ الملف من يدها في تعجب، يقلب الصفحات، يقرأ دهشًا ويقول:

- غير معقول!! يوشيرو جاسوس للجيش الحر؟!

قعدت كريستينا على كرسي قريب:

- يوجد خطأ ما، مستحيل أن يكون يوشيرو من الثوار، لكن انظر إلى الصفحة الخامسة.

وبينما يقلب سيباستيان صفحات الملف، تقع أعينه على صورة لشيء رمادي اللون، براق، يشبه قطعة من الثوب. قرأ نصًا صغيرًا بجانب الصورة ونظر إلى كريستينا في صمت مطبق.

******

استيقظ يوشيرو، ووجد بجانب سريره صينية عليها كأس عصير موز، وحبة فاكهة اكتشف طريقة أكلها بصعوبة، وقطعة حلوى، وصندوق أدواته بالقرب من الروبوت المتكئ على الحائط كما تركه ليلة البارحة.

أسرع في فطوره، ثم خرج من غرفته ليلتقي بأميليا، ترتدي زيها العسكري، متجهة نحوه:

- صباح الخير، أميليا.

تجيبه وعلى وجهها ابتسامة جعلت دماغ يوشيرو يفرز كمية من السعادة أكثر مما اعتاد عليه في صباحاته:

- صباح الخير، يوشيرو. نمت جيدًا؟
- لا... ليس فعلًا.

فتجيبه محافظة على ابتسامتها:

- آه، كابوس. كل القادمين الجدد يحلمون بكوابيس في لياليهم الأولى هنا. لا تقلق، إنه أمر جيد. يقول يعقوب إن عقل الإنسان يصلح برمجته داخل الهرم.

يجيب يوشيرو مومئًا برأسه باهتمام لا يبدو عليه:

- هممم... مثير.

ثم وقف يستمتع بذلك البريق الفريد الذي ينشأ داخل عيني أميليا، وهمس لنفسه: "آه... كم أستطيع التعود على هذا أيضًا."

- قلت إنك كنت في طريقك إلى المنزل. أليس كذلك؟ المريخ؟
- أجل.
- أتريد أن أرافقك إلى غرفة محرك المركبة لإلقاء نظرة؟

كان قد نسي مسألة الهرم والسفينة الفضائية، حتى ما حدث البارحة مع الروبوت.

عاد إلى غرفته جريًا وأخذ صندوق أدواته، ثم اتجها معًا نحو ممر داخلي، قادهما إلى سلم، ثم ممر آخر وسُلّم آخر، حتى وصلا إلى غرفة ضخمة جدًا، بحجم ملعب كرة قدم صغير. حيطانها بيضاء شديدة السطوع تضيء المكان، وفي وسطها بناء مكعب أسود، ويرتفع نحو أربعة عشر مترًا. رفع يوشيرو بصره إلى الأعلى مذهولًا وسأل:

- هل نحن تحت الهرم؟

تجيبه أميليا بينما تفتح باب المبنى الأسود المظلم، قبل أن ينسل إليه نور المكان:

- نعم، المنشأة بأكملها تُسمّى "المركابا"، والهرم العلوي جزء منها. هذه الغرفة الضخمة نسمّيها "غرفة الوداع". في حال اشتغلت المركبة، سيجتمع الجميع هنا. أما هذا المبنى الأسود، فهو غرفة التشغيل. كان محطة لتوليد الطاقة بالاندماج النووي قديمًا.

تبع يوشيرو أميليا إلى داخل المبنى. أرضيته من بقايا الرخام، وتفوح فيه رائحة غريبة تشبه رائحة الكتب القديمة. بداخله ثلاثة أعمدة تميل إلى السواد، ترتفع إلى السقف.

فتحت أميليا صندوقًا كبيرًا بالقرب من أحد الأعمدة، واقترب منه يوشيرو. كان يبدو أن بداخله محركًا من نوع ما. نصحته أميليا بتوخي الحذر بينما يمدّ يده داخل المحرك، يلمسه... حديدي أملس. تتبع الأنابيب الرقيقة بيده حتى أخرج قنينة صغيرة فارغة.

تعود يوشيرو منذ صغره على شم الأشياء الغريبة عليه، فكان ذلك أول ما فعله. وعلى الفور، أخذته سلالاته العصبية إلى لحظة وقوفه داخل الكبسولة التي كان يعيش فيها يوسف على القمر. نفس رائحة ذلك الشيء الغريب الذي وجده تحت السرير هناك.

اتجه فورا نحو علبة أدواته، وبحث قليلا ثم أخرج ذلك الشيء الغريب، يتوهج بطريقة غير مألوفة بلون بنفسجي.

بدأ يحس يوشيرو به يتحرك بين يديه، ثم وقع على الأرض فجأة منفصلا إلى جزأين، جزء سائل زئبقي رمادي براق متحرك، وجزء صلب يبدو لوحةً عليها كتابة ما.

أخذ الجزء الرمادي الغريب يتحرك هنا وهناك يقفز بين الأرضية والجدران كالمطاط، فتكلمت أميليا عندها متعجبة:

- إنه حي!!

ثم سقط أرضا، وبدأ يزحف كالدودة نحو باب الممر، فأسرع يوشيرو حاملًا القنينة الفارغة، وأطبق عليه داخلها، ثم أغلقها عليه يتأمل فيه. يفكر كيف أنه أخيرا وجد شيئا من ال"يوردج".

اتسع السائل داخل القنينة محدثًا جلبة جعلت يوشيرو يظن أنها على وشك الانفجار، فوضعها أرضًا وطلب من أميليا المدهوشة أن تتراجع إلى الخلف.

انتهت جلبة السائل محدثةً صوتًا خفيفًا، واقترب يوشيرو من القنينة بحذر، ثم حملها، فبدت أثقل بكثير من قبل، بدليل أنه اضطر إلى حملها بكلتا يديه. اقتربت منه أميليا ضاحكة:

- هل كنت تُخفي كائنًا فضائيًا في علبة عدّتك؟!

أرجع يوشيرو القنينة في مكانها داخل الآلة وسط الصندوق، وأخرج جهازًا صغيرًا من علبة أدواته وهمَّ بإلصاقه على الحائط. فجأة، بدأت الأرض تهتز تحتهما قليلًا، فصاح يوشيرو:

- زلزال؟

تجيبه أميليا:

- لا، لا تصيب الزلازل هذه المنطقة.

ازدادت رجّة الأرض، وأخذ يوشيرو يد أميليا يجري هاربًا نحو الممر، ليجد يعقوب ينزل من السلم أمامهم. تصيح به أميليا:

- يعقوب!! ما الذي يحدث؟

نزل يعقوب وعلى وجهه نفس الابتسامة الحكيمة التي لا تفارقه، يصيح بصوته المبحوح الطفولي:

- لقد اشتغلت! أصلحت المركابا! فعلتها يا يوشيرو!

توقّف عندها اهتزاز الأرض، وأردف يعقوب وهو يجري متجاوزًا يوشيرو وأميليا، متجهًا نحو المبنى المكعب:

- ماذا فعلتما بالضبط؟

دلف إلى الغرفة الضخمة، فوقع بصره على اللوحة المرمية على الأرض، رفعها وبدأ يقرأ ما كُتب فيها، ليعود اهتزاز الأرض من جديد.

فتوقّف، وهدأ الاهتزاز، وسأل بوجه سعيد مضيء:

- أين كانت هذه اللوحة؟

أشارت أميليا بيدها نحو يوشيرو كأنها أخت تتّهم أخاها بأكل الحلوى.

تقدّم يوشيرو نحو يعقوب مدهوشًا من كل ما حدث، رافعًا يديه وكتفيه:

- لا أعرف! انفصلت عن يوردج، جزأ منه تحول للوحة، والجزء الآخر وضعته في القنينة التي وجد...

وقبل أن يكمل أدرك هو ويعقوب ما حصل، بينما أميليا تسأل:

- يوردج؟ ما اليوردج؟

أغمض يعقوب عينيه، كأنه قرأ لتوّه رسالة معجزة ظريفة، وقال:

- سنرحل الليلة. أميليا، هل الجميع مستعد؟

تجيب أميليا بإيماءة، ثم اتجه الثلاثة نحو الممر، وقبل أن يصلوا إلى السلم، انطلقت سلسلة من الانفجارات. تبعها صراخ جندي يجري نحوهم:

- أميليا!! أميليا!! نتعرض لهجوم!!

وقفت أميليا تنظر إلى يعقوب، ويعقوب يرمق محرك السفينة داخل الغرفة السوداء، ويوشيرو يتابع نظره بين أميليا والجندي، كأنهم يتقاذفون كرة التوتر. قطع صمت المكان صوت يعقوب الطفولي الهادئ: "أعتقد أننا سنغادر قبل الوقت الذي خططنا له".

ثم نظر إلى أميليا وأمرها:

- أرسلي الوسيطات إلى هنا، واحرصي على أن يكون الجميع داخل غرفة الوداع.

صاح الجندي:

- لكنهم اخترقوا حائط البلازما، لقد اقتربوا!

تسلقت أميليا السلم بسرعة، وتبعها يوشيرو والجندي، بينما توجه يعقوب نحو المبنى الأسود حاملًا اللوحة.

امتلأت الممرات تحت الأرض بعويل الأطفال وصخب الفوضى.

وصلت أميليا إلى الحديقة، حيث تجمع عدد من الرجال يرتدون ألبسة عسكرية. وقفت بثبات، اقتربت من أحد الجنود وهمست له:

- أريدك أن تدمر كل ممرات الدخول وتغلق فتحات المركابا. سنغادر اليوم.

ثم توجهت إلى باقي الرجال، أخذت نفسًا عميقًا دون أن يبدو عليها ذلك، وقالت:

- سنغادر الآن. لدينا ألف نفس في هذه المدينة. أريدهم جميعًا داخل غرفة الوداع. كما تدربنا طوال هذه السنين، فتشوا كل غرف الممرات، ابحثوا تحت الأسرة، خلف الأبواب، في كل زاوية، لا نريد أن نترك أحدًا. هذه هي اللحظة التي انتظرناها، يا سادة... هيا!

انطلق الرجال في كل اتجاه. أوقف يوشيرو أحدهم وسأله عن كريم، ثم أوصاه أن يحرص على أن يكون مع البقية.

نادت أميليا على الفتيات (الوسيطات) داخل الغرف المربعة المحيطة بالشجرة الضخمة في قلب الهرم، ثم رافقتهن إلى المبنى الأسود، حيث كان يعقوب يؤدي تمارين خاصة استعدادًا للطقوس.

لم يكن الهجوم من طرف الفدرالية، ولا من الجنود المهزومين في معركة البارحة. بل شنه جيش متوحش، غريب، قادم من الجانب الآخر للقارة. راقبوا المعركة عن بُعد بالدرونات، ثم تتبعوا الجنود العائدين إلى المدينة، واخترقوا حائط البلازما، وبدأوا في قصف المباني المحيطة بالهرم، ظانين أنها مأهولة.

لم يكن هدفهم سوى القضاء على أكبر عدد من الناجين من الزلازل، الفيضانات، والحروب. قادهم زعيم مهووس بتعاليم "أخوية النور" المتطرفة. وحدها قدسية الهرم في نظرهم منعتهم من قصفه.

دُمّرت جميع الأنفاق المؤدية إلى المدينة، واحتشد السكان داخل الغرفة الضخمة.

كان يوشيرو آخر من وصل، يجر روبوته خلفه.

أُغلقت بوابة المدخل، وأشارت أميليا إلى الوسيطات الست بالانضمام إلى يعقوب الجالس داخل المبنى الأسود. دخلت أميليا مع الفتيات وجلسن في دائرة حول يعقوب، الذي بدأ يقرأ مباشرة من اللوحة.

بدأت الاهتزازات ضعيفة أولًا، ثم أقوى فأقوى.

تسلل صوت يعقوب، رقيقًا ومتماسكًا، عبر غمغمة الوسيطات، ليلامس آذان الجالسين خارج المبنى، على الأرضية المحيطة.

ثم دوّى صخب مفاجئ في أرجاء الهرم العلوي، امتد إلى الغرفة الضخمة في الهرم السفلي.

انطلق صوت تمزق لحاف الشجرة العظيمة، وانشق جسدها ليظهر عمود ذهبي في مركزها، انبثقت منه أعمدة أخرى اتصلت بثقوب الهرم، الذي بدأ لونه يتغير إلى الذهبي، تغلقها بإحكام، ثم يتغير بعدها مباشرة شكل الحيطان داخل الهرم فتصبح أكثر اتساقا ومتانة.

تساقط الغلاف العشبي والأشجار الصغيرة عن سطح الهرم، لينكشف معدن ذهبي لامع يبرق تحت الضوء.

أنهى يعقوب القراءة.

سكن كل شيء.

صمت رهيب خيّم على المكان، دام لدقائق، حتى قطعه يعقوب بخروجه من المبنى، تتبعه أميليا والوسيطات. كان مشيهم غريبًا.

لم ينتبه لذلك أحد إلا يوشيرو، الذي همس مذهولًا:

- نحن في الفضاء!

كان المشهد من الخارج بديعًا: سفينة ذهبية، ثُمانية الأوجه، تسبح في الفضاء أمام أنظار أسطول الفدرالية، متجهة نحو المريخ، الذي يدور غير بعيد عن الأرض، في نفس المدار تقريبًا.

كان الزمن داخل المركبا يمر ببطء شديد مقارنة بالعالم الخارجي، لم تُرَ إلا لدقائق معدودة من الخارج، أما من بداخلها، فتمر ساعات. استغلها يوشيرو لمحاولة فهم ما حدث لأميليا، وما علاقة الروبوت بذلك.

أخرج جهازًا صغيرًا وألصقه بالجدار، فانبثقت منه شاشة ثلاثية الأبعاد. تحت أنظار الجنود وسكان المدينة، بدأ يتنقل بين أشكال هندسية ومخططات، كما لو كان يعمل على حاسوب معقّد، ظهر أمامه مخطط الروبوت الذي وجد أحد النماذج التي صمّمها والده.

تابع البحث داخل ملفات سرية من أرشيف الشركة، حتى عثر على وثيقة معينة. بينما كان يقرؤها، اقترب منه يعقوب وبدأ يقرأ معه بصمت.

أنهى يوشيرو قراءته، أغلق الجهاز، وبقي صامتًا يتأمل، حتى قطع يعقوب تفكيره: "إنه يوردج."

ثم صمت لحظة، وأردف بابتسامة خفيفة قبل أن يبتعد:

- الغدد...

كرر يوشيرو الكلمات التي نطقها يعقوب في نفسه:

- الغدد...

راقب يعقوب وهو يبتعد، ثم نظر إلى الروبوت المركون في الزاوية، اقترب منه وهمس مع نفسه: "الغدد... "

اتسعت عيناه فجأة.

تناول علبة أدواته بسرعة، واتجه نحو الروبوت. بدأ يفك أغطيته، ليُفاجأ بوجود قطع لم يرَها من قبل حين درس هذا النوع من الآلات وليست في المخطط القديم.

كانت هناك أكياس صغيرة موزعة داخل البدن، متصلة بأنابيب دقيقة. نزع أحدها ليفحصه. شمه أولًا... نفس رائحة المادة الرمادية الغريبة التي وجدها تحت سريره في شقته على القمر. نفس رائحة الكائن الفضائي الذي خزنه في القارورة صدفة واشتغل محرك السفينة الهرمية به، الكائن الذي فعّل به المركابا.

قلّب الكيس في يده، كان ممتلئًا بمادة لزجة، حية تقريبًا تتحرك لوحدها.

أعاد الكيس إلى مكانه، ثم فك رأس الروبوت إلى نصفين. وجد كيسًا آخر صغيرًا، موضوعًا في منتصف ما يشبه الدماغ.

تعرف على الموقع فورًا، هنا عادةً ما توجد الغدة الصنوبرية عند الإنسان. أعاد تركيب الأجزاء وجمع الروبوت كما كان، ثم جلس بجانبه، ضامًا ركبتيه إلى صدره، يتأمل، يحاول ربط الخيوط:

أميليا، الروبوت، الكائن الرمادي... الإسقاط.

هل يمكن أن يكون هذا هو السر؟ أن الروبوت لا يحتاج لطاقة؟ لا بطاريات نووية، لا مصادر واضحة لتشغيله. هل تكون أميليا قد "أُسقِطت" داخل هذا الجسد الآلي بطريقة ما؟

كان يشعر بأنه يقترب من حل اللغز الذي تركه والده خلفه... لكنه لم يكن متأكدًا بعد، يعرف أن النظرية قد تكون صحيحة، لكن تنقصه الثقة. لا يعرف طبيعة هذه المادة الرمادية بما يكفي.

سأل يعقوب مجددًا عمّا يقصده، لم يُجبه.

استغرب من الصمت، ثم عاد يفكر في "المحارب". كلما ازدادت ضوضاء أفكاره، ازداد غضبه من والده. كيف لعبقري مثله أن يكتشف شيئًا كهذا ويصنع منه مجرد آلة حرب؟

داخل إحدى المركبات المبتعدة عن أسطول الفدرالية، يجلس سيباستيان وكريستينا في قمرة القيادة، وفي الخلف: إيتا، يوسف، وميمون، في رحلتهم هربًا نحو الأرض كما خططوا.

حصل سيباستيان -مدة عمله القصيرة قائدًا للعمليات الخاصة- على معلومات ومخطوطات وخرائط قديمة تشير إلى وجود مدن آمنة من التقلب المنتظر للكوكب، تقع في باطن الأرض، ومنذ ذلك الحين وهو يحلم بالفرار من استعباد الفدرالية على القمر.

كانوا يخططون لتتبّع يوشيرو أولًا ومحاولة إقناعه بالذهاب معهم، رغم أن سيباستيان لم يكن مرتاحًا لهذه الفكرة، على عكس كريستينا ويوسف. السبب؟ غيرته، لطالما ظن أن كريستينا تكن مشاعر ليوشيرو، ولم يستطع إخفاء ضيقه من ذلك.

بدأت كريستينا تتكز نفذ سيباستيان بجانبها داخل قمرة القيادة، بينما كانت المركابا تمرّ أمام سفينتهم، سابحة في الفضاء بهيبة تليق بالكواكب والنجوم، لتحوّل انتباهه من الشاشة التي كانت تلاحق إشارة تشير إلى أن يوشيرو يسبح خارج الغلاف الجوي للأرض، إلى هذا المشهد المهيب للمركابا. انتقلت أعين سيباستيان بين الشاشة ونافذة المركبة، تتسارع الأفكار داخل دماغه لتقوده إلى استنتاج واحد: يوشيرو داخل ذلك الشيء.

وقبل أن ينطق، ظهر حقل ضوئي حول المركابا بلون بنفسجي فاتح، تسارعت قليلًا، ثم اختفت. واختفت معها الإشارة من شاشة تتبّع يوشيرو، فقط لتعود بعد ثوانٍ، لكن هذه المرة في إحداثيات على سطح المريخ.

نظر سيباستيان إلى وجه كريستينا المنبهر، وقال بصوت متردد:

- يوشيرو في المريخ!

استفاقت كريستينا من نشوتها ونظرت إلى الشاشة مذهولة، وأردف سيباستيان:

- يوشيرو كان داخل ذلك الشيء.

ساد صمت داخل المركبة. نظر يوسف من النافذة، يسترجع ذكرى صديقه يامادا بحسرة، ثم قال وهو يحدّق في سيباستيان:

- يجب أن ننقذه... بأي ثمن.

نظر سيباستيان إلى الشاشة، حيث يضيء موقع يوشيرو داخل الخريطة. كان خارج منطقة الحماية الفدرالية، في منطقة تخضع لسيطرة الجيش الحر للمريخ. لم ينتظروا كثيرًا قبل اتخاذ القرار. وجّهوا المركبة نحو المريخ.

ضاااضاا

غير بعيد عن معسكر الثوار في المنطقة الشرقية من المريخ، ظهرت المركابا كالشبح، تنزل ببطء من المجهول إلى البعد المادي. كان هرماها يدوران في اتجاهين متعاكسين، يدور السفلي وهو يحفر الأرض فوق هضبة حتى يختفي تمامًا، ولا يبقى ظاهراً سوى الهرم العلوي الذهبي، الذي سرعان ما جذب بريقه ودورانه انتباه بعض الجنود الثوار المتفرقين قرب تلك الهضبة.

أقبل الجنود راكضين، يشهرون أسلحتهم في ترقّب، ينتظرون من سيخرج من هذا الكيان الغريب. ولم يزد المشهد غرابةً إلا بخروج يعقوب أولًا، كان حريصًا على التصرّف بما يناسب شكله.

لم يكن أولئك الجنود مهيئين لرؤية طفل يخرج من باب هرم ضخم ظهر للتو من العدم، فوقفوا مذهولين، يحدقون بأفواه مفتوحة، وقد خفضوا أسلحتهم دون وعي. تقدم يعقوب بخطى واثقة، ونزل بهدوء من على جنبات المركابا، ووقف يواجه الجنود المذهولين حتى اقترب منه أحدهم، ولم يبق بينهما سوى خطوتين. جلس الجندي أمامه، يحدق فيه بانبهار. لم يستطع يعقوب مقاومة الاستمتاع بالموقف. وبينما اقترب الجندي منه أكثر، بدّل يعقوب

ملامح وجهه فجأة: من طفل ظريف مبتسم إلى وجه صارم مكفهر، ثم قال بصوت بالغٍ مخيف يقلد تعابير الأطفال، كان يذخره لمثل هذه اللحظات:

- ضاااا... ضاااا...

تراجع الجندي وسقط على مؤخرته مذعورًا، مترددًا بين رفع سلاحه نحو الطفل أو سؤاله من أو ما يكون، ثم قال متلعثمًا:

- م... من أنت؟

اقترب يعقوب منه أكثر، وفي تلك اللحظة خرجت أميليا والوسيطات خلفه. وصل عند الجندي وأجابه بهدوء:

- جئنا من الأرض.

خرج يوشيرو هو الآخر، ومعه كريم، في تلك اللحظة.

قفز الجندي واقفًا وصاح لرفاقه:

- جاءوا من كوكب الأرض!

انطلق أحد الجنود مسرعًا نحو سيارة مركونة لإبلاغ القاعدة. وما هي إلا لحظات، حتى أقبل سرب من العربات والشاحنات، تتقدّمها سيارة سوداء، يطل من نافذتها رجل بعمامة زرقاء.

كان واضحًا من نظرات الجنود إليه أنه القائد. القائد أنثارا.

نزل أنثارا من سيارته، وتأمل في المركابا قليلًا، ثم تقدّم نحو الخارجين منها يبحث بعينيه عن شخص يبدو مؤهلًا للإجابة على أسئلته.

لاحظ يوشيرو وهو يساعد أحد الأطفال على النزول من الهضبة، فتوجه نحوه ووقف أمامه.

اقترب الجندي الذي كان أول من احتكّ بالزوار من القائد، وهمس له بشيء وهو يشير إلى يعقوب.

تذكّر يوشيرو شيئا، فعاد مسرعًا إلى داخل المركابا يبحث عن علبة أدواته التي وضع الظرف بداخلها. وجدها، وعاد بها إلى أنثارا، ثم سلّمه الظرف بصمت.

سأله أنثارا وهو يفتح الظرف: "من أين لك هذا؟"

أجاب يوشيرو:

- وجدته مدسوسًا داخل مركبتي. أعتقد أنه مهم لكم.

رفع أنثارا عينيه:

- هل رأيت ما يحتويه؟

قال يوشيرو:

- أجل... رسالة من روفسكي، أو كوفسكي، أو شيء من هذا القبيل.

ساد الصمت بين أنثارا والجنود بعد ذكر ذلك الاسم، بدا فيها هذا الأخير في في حيرة، يحاول الاستيعاب. أطال النظر إلى يوشيرو والناس المحيطين به، ثم همس بأمر ما لأحد الجنود، وطلب من يوشيرو أن يرافقه.

امتلأت الشاحنات واتجهت نحو المعسكر، وتبع يوشيرو القائد، بينما يبحث بعينيه عن أميليا حتى لمحها تحمل يعقوب وتجلس داخل إحدى الشاحنات، تنظر إليه بابتسامة جعلته مطمئنا.

انطلق أنثارا بسيارته مع يوشيرو متجهين نحو مجمع في أطراف المعسكر، يجتمع فيه قادة الثوار.

كان يوشيرو طوال الطريق غارقًا في التفكير، أو يرغب في سؤال أنثارا شيئًا ما، ولا ينتظر سوى إيجاد الكلمات المناسبة لصياغته. فبعد ما اكتشفه على كوكب الأرض من خداع الفدرالية لسكان الجنوب، أصبح مستعدًا ليشك في كل شيء، بعد أن كان يشك في معظم الأشياء فقط.

ما قصة كروفسكي هذا؟ وقبعة أبيه التي يرتديها؟ ولماذا هُرّب الظرف إلى مركبته هو بالذات؟ قُتل الأب ويريدون التخلص من الابن؟ لكن الظرف يحتوي على معلومات، لا تحتمل كل هذا. حتمًا يوجد جواب، لو فقط يستطيع معرفة السؤال المناسب. لا يفهم لماذا لا يستطيع التفكير تفكيرا صحيحًا، يشعر كأن دماغه مشفّر، وبنات أفكاره يصيبها اليُتم واحدة تلو الأخرى. نسي أن توقفه عن استهلاك الغاز الحيوي بدأ يخلّ بتوازنه الذهني.

واستمر غرق يوشيرو في خياله حتى انتشله أنثارا بسؤال، بصوت عالٍ يغلب ضوضاء السيارة:

- ما تلك السفينة التي أحضرتكم من الأرض؟ لم أرَ مثلها من قبل.

يجيبه يوشيرو مستيقظًا:

- ولا أنا. لا أعرف بالضبط ما هي، لكن يبدو أنها تكنولوجيا قديمة.

يستأنف الصمت قليلًا من جديد، ثم يردف بود قائلًا:

- يمكننا اكتشافها في وقت لاحق.

خطف أنثارا نظرة سريعة إلى يوشيرو بينما يقود، وقال:

- فلنأمل أن يبقى هناك وقت لاحق. وصلتنا اليوم معلومات مقلقة: الفدرالية تخطط لغزو شامل هذا الأسبوع، وسيستعملون المحارب.

صمت يوشيرو قليلًا، ثم سأل:

- من صاحب الظرف؟

أجابه أنثارا:

- بيتر كروفسكي، مخبر... على القمر.

ثم أردف مبتسمًا:

- أظن أنه خبّأ الظرف داخل...

وقبل أن يكمل كلامه، نظر إلى يوشيرو باستغراب، ثم همّ بسؤاله، إلا أن يوشيرو سبقه وقال بانزعاج واضح في عينيه:

- أجل، كنت على القمر. مخبركم خبأّ الظرف داخل أمتعتي، ولاحقتني صواريخ الفدرالية بسبب ذلك، ونزلت على الأرض اضطراريًا.

قهقه أنثارا قليلًا وسأل:

- ماذا كنت تفعل على القمر؟
- مهندس ميكاترونيكس.
- جيد، على الأقل لست جنديًا لعينا.

ابتسم يوشيرو عنوة، وسأل أنثارا:

ـ وما علاقة كروفسكي بيامادا؟

رسم السؤال ريبة على وجه أنثارا الذي سأل كأنه يعرف هذا الاسم جيدًا:

ـ يامادا؟

علم يوشيرو عندها أن أنثارا يُخفي شيئًا ما، ولم يجد بُدًّا سوى إخباره أنه ابن يامادا، وأنه رأى قبعة أبيه على رأس كروفسكي في الرسالة.

انتظر أنثارا قليلًا، أمعن النظر في يوشيرو، ثم قال:

- سنتحدث في الأمر لاحقًا.

أجابه يوشيرو بامتعاض:

- ... لا، أخبرني ما تعرف الآن.

استمر أنثارا في القيادة صامتًا لوهلة، ثم نطق:

- لم نخطط لذلك يا سيد يوشيرو. كروفسكي هو من قتل يامادا، أباك. لكن... أتعرف من أمر بذلك؟

وسبقه يوشيرو إلى جواب كان يقبع في ركن بعيد من خياله الارتيابي:

- الفدرالية.
- أجل. الأمر مريب... كيف يُغتال بعد كل ما فعله من أجلهم؟

عمّ الصمت داخل السيارة، لا يُسمع سوى حفيف العجلات على الأرض، وهمس بعيد لشيء يقترب، لكن أنثارا قطعه:

- نعلم أيضًا أن والدتك كانت تتعرض للمضايقة هنا، لابتزاز يامادا حتى يستمر في خدمة الفدرالية. وربما... ربما توفيت أمك تحت التعذيب، فتوقّف يامادا عن...

قاطعه يوشيرو:

- لا بأس... توقف... لا أريد أن أعرف مزيدًا...
- أنا آسف.

قال أنثارا، وكان الأسف واضحًا على قسمات وجهه.

فجأة، ظهرت مركبة سيباستيان مباشرة أمام سيارة أنثارا، فأوقفها ومدّ يده إلى سلاحه ببطء، مترقّبًا.

حطّت المركبة على الأرض، وفتح الباب، وخرجت كريستينا، ثم سيباستيان، بينما بقي يوسف وميمون وإيتا في الداخل يراقبون الموقف.

تقدّم سيباستيان ببطء، ثم صرخت كريستينا:

- "يوشي!!"

سمع يوشيرو ذلك، وخرج من السيارة بعد أن أجاب سؤال أنثارا:

- أجل، أعرفهم... مايو!! سيباستيان!! ماذا تفعلان هنا؟

ركضت كريستينا نحوه واحتضنته بشدة، وقالت بصوت مختنق من الاشتياق:

- نحن هنا لإنقاذك.

نظر إليها مستغربًا:

- إنقاذي؟

اقترب منه سيباستيان عندها وقال:

- الفدرالية، يا يوشيرو... إنهم يبحثون عنك، أنت مطلوب، وإذا ألقوا القبض عليك، فأنت هالك لا محالة.

خرج أنثارا من سيارته وتقدّم نحوهم، فأمسكت كريستينا بيد يوشيرو تحاول جَرّه:

- هيا يا يوشي، ليس لدينا وقت للشرح، يجب أن نذهب فورًا.

لكن يوشيرو أفلت يده من قبضتها وقال:

- مايو... لا يمكنني المغادرة.
- لماذا؟ (سأل سيباستيان)

ألقى يوشيرو نظرة نحو أنثارا ثم قال:

- يجب عليّ مساعدتهم.
- لا يحتاجون مساعدتك، أنت لا تعرفهم حتى، وصلت للتو هنا.

ردّ سيباستيان.

- بلى...

يتدخل أنثارا.

- نحتاجه، نحتاج كل المساعدة التي يمكننا تلقيها، لقد أتى لاجئون من الأرض إلى هنا اليوم، وجنود الفدرالية قادمون، لن يتركوا أحدًا على قيد الحياة، هنا أطفال ونساء.

خرج يوسف وإيتا وميمون عندها، وقع بصر يوشيرو على يوسف واقفًا خارج المركبة، فتوسعت عيناه بدهشة، وسارع إليه بخطوات متلهفة وهو يهتف باسمه:

- يوسف!!

ليردّ يوسف بقلق:

- يوشيرو، أنت في خطر يا بُنَي، عل...

قاطعه يوشيرو بحماس، دون مقدمات:

- ابنتك... ما زالت حية يا يوسف. أميليا. إنها هنا. ما زالت حية! وعندها صورة لك، في قلادة. إنها هنا.

تجمّد يوسف في مكانه، يحدّق في يوشيرو ويغمغم بشيء غير مفهوم، كأنه أصيب بسكتة دماغية، كان مصدومًا أولًا من سماع اسم ابنته بعد كل هذه السنين، ثم لسماعه من فم يوشيرو، ثم حية؟... وأنها هنا.

تابع يوشيرو بهدوء:

- إنها بخير.

نطق يوسف عندها، مرتعشًا:

- أميليا...؟ حية؟

ثم اندفع نحو يوشيرو وأمسكه من كتفيه بقوة، كاد أن يخلعهما من مكانهما، وعيناه مشدوهتان كالمجنون:

- أين هي؟ خذني إليها، الآن.

نهاية

أخذ يوشيرو بيد يوسف إلى سيارة أنثارا، بعدما طلب منه أن يأخذه إلى حيث اتجهت الشاحنات التي تقل اللاجئين القادمين من الأرض.

انطلق سيباستيان نحو مركبته، وأدخل يده داخل فوهة بجانبها، فانفصلت عنها سيارة مستقلة، ركبها هو وإيتا وميمون وكريستينا، ولحقوا بسيارة أنثارا التي انعطفت عائدة باتجاه معسكر اللاجئين.

كان قلب يوسف يخفق بشدة طوال الطريق، بينما يوشيرو يلحّ على أنثارا بأن يسرع، كان ينتظر الوصول بفارغ الصبر ليشهد لحظة لم شمل أميليا بأبيها، وفي ذهن يوسف كانت الذكريات تتفجّر كشرارات تعيد إلى الحياة ماضٍ موجع.

ظهر المعسكر في الأفق، وكلما اقتربت السيارة، شعر يوسف بجسده المتعب يستعيد طاقته، ببصره يزداد حدّة، وأنفه يستنشق الهواء بشراهة، جلده ينتفض بالحساسية، وعظامه تستقيم كأنها استعادت صلابتها... كل جزء منه يستعدّ لاستقبال الحياة من جديد... وما إن توقفت السيارة داخل المعسكر، حتى قفز يوسف منها صارخًا:

- أميليا! أميلياااا! أمييلياااا!

نزل الجميع من السيارتين، وراحوا ينادون على أميليا. وما هي إلا لحظات حتى خرجت من إحدى الخيم، واقفة في ذهول، تنظر إلى العجوز الذي يصيح باسمها. تلمح يوشيرو واقفًا إلى جواره، يبتسم لها بسذاجة.

تقدّمت ببطء، تسترق النظر إلى ملامح الرجل العجوز... ترى يده المبتورة، قامته، صوته الذي يشبه مفتاحًا يحاول فتح باب في ذاكرتها. وما إن استدار وجهه نحوها، حتى بدا مألوفًا فجأة. شعرت برعشة تسري في ركبتيها، كأن الأرض بدأت تهتزّ تحت قدميها.

قال هو بصوت خافت، لا يكاد يُسمَع:

- أميليا!

تطير الأرض تحتها، تطفو، ثم تجد نفسها بين ذراعيه، مدفونة في حضنه. اختلط بكاؤهما، وراحا يعانقان بعضهما كما لو يحاولان لملمة ما بقي من الزمن. أخذ يوسف وجه ابنته بين كفيه، ثم ضمّها إلى صدره مرة أخرى، يبكي:

- سامحيني يا ابنتي... سامحيني.

لا يطول استمتاع المشاهدين بهذه الظاهرة التي يحرص ذلك العالم القاسي على ندرة حصولها. سرعان ما عادت نواقيس الحرب تدق، عبر جهاز الاستقبال اللاسلكي في سيارة أنثارا: قوات الفدرالية وصلت.

أسرع سيباستيان إلى سيارته، ينادي على كريستينا:

- كريستينا، يجب أن نرحل فورًا!

بدأ ميمون يبحث عن إيتا، التي اختفت فجأة وسط الفوضى. فقد الأمل في العثور عليها فعاد مسرعًا إلى السيارة بجانب سيباستيان، بينما لا تزال كريستينا تحاول إقناع يوشيرو بالرحيل معهم. صرخت في وجهه:

- يوشي، لا شيء يمكنك فعله هنا، إنها حرب!

نظر إليها، وجهها الشاحب يرتجف، وقال:

- مايو... أنا أعرف كيف أوقف المحارب.
- تعرف؟

صمتت لوهلة، تخيّلته بعيدًا عنها، ثم أردفت:

- ثم ماذا؟ وإلى متى؟

تأملت ملامحه، ثم التفتت إلى جنود المعسكر تلاحظ قِلّة عددهم وعُدّتهم، تعلم أيضا أن الفدرالية في طريقها لتنظيف آثارها وتصفية حزب الثوار الذي كان يعمل تحت إمرتهم.

- لن تنجو هنا.

اقترب منها يوشيرو، أمسك يدها، وابتسم بعينيه قائلًا:

- مايو... يوجد أمل. صدقيني.

لتصيح هي فجأة بغضب، كأنها تحاول التخلص من جزء مؤلم بداخلها، وتنساب دموع من عينيها:

- لستُ مايو.

نظر إليها يوشيرو بعطف، واقترب منها أكثر، بينما استمرت هي، مصرة على اضطرابها:

- أنا كريستينا.

فقال بهدوء:

- يوجد أمل... طالما نصنعه. لا توجد أشياء كثيرة أريدها... أنت تعرفين ذلك. أرجوكِ، مايو، ابتعدي من هنا.

لتجيبه كريستينا بشهيق مستسلم باكٍ، خانتها فيه الكلمات: "أحمق". وغير بعيد عنهما، كان أنثارا واقفًا يبتسم وهو يستمع إلى حوارهما، بدا أن كلمات يوشيرو أشعلت في داخله حماسًا قديمًا جديدًا.

قديم، لأنه قبل انضمامه إلى فصيل الثوار، كانت دوافعه نقية. كان يحلم بتحرير شعبه من بطش من قتلوا عائلته، وبأن يوحّد سكان المريخ مع قبائل الأركاين، كما كان يحلم إخوته. لكن الظروف ساقته إلى طريق آخر، إلى خدمة قادة عسكريين لم يكتشف حقيقتهم إلا بعد فوات الأوان؛ عملاء مزدوجين للفدرالية، يتسترون بالثورة ويكنّون الولاء للعدو. ومنذ ذلك الحين، لم ينطفئ العذاب في صدره. كان يقاتل دائما بضراوة، لكنه لم يتخلّ أبدًا عن شعوره بأنه يخون شيئًا أعمق بكثير من القتال.

فقد نجحت الفدرالية، بدهائها، في حبس إرادة الثوار داخل قفص الانتقام، وجعلتهم يقاتلون من أجل القتل فقط. كانت تطعمهم جنودًا من الأرض في كل معركة، والدماء لا تنتهي. لم يكن أنثارا يعرف كل التفاصيل، لكنه كان واثقًا أن قادته يدينون بالولاء للقمر. أما الآن، وهو يرى يوشيرو، هذا الغريب الذي جرفته الأقدار إليهم، يختار أن يبقى ليساعد، ويشق طريقه بإيمان بسيط لكن عنيد، ربما، فقط ربما، يستطيع هو أيضًا أن يفعل شيئًا يعيد به الأمور إلى نصابها... معه.

ودّع يوشيرو كريستينا بعناق شدّ فيه جسدها المتخشب من الحزن إلى صدره، ووعدها باللقاء من جديد، ثم غادر المعسكر برفقة أنثارا ويوسف وأميليا.

حلّ المساء سريعًا، ووصلوا إلى مقر العمليات: دفيئة قديمة تحوّلت إلى مركز عسكري، يجتمع فيها قادة الجيش الحر المريخي حول مائدة مستديرة، تعلوها خريطة ثلاثية الأبعاد تُظهر مواقع قواتهم وقوات الفدرالية الآلية التي تقترب من مدار المريخ.

قبل أن يدخلوا إلى مقر العمليات، استوقف أنثارا يوشيرو جانبًا، وحدّق في عينيه بجدية.

- اسمعني جيدًا، كل ما تعرفه عن تكنولوجيا الفدرالية... احتفظ به لنفسك الآن، لا تخبر أحدًا.

رفع يوشيرو حاجبيه بدهشة، لكنه لم يقاطعه.

أكمل أنثارا بصوت منخفض وهو يرمق مدخل المقر بنظرة سريعة:

- أشكّ أن بين هؤلاء -من جنرالات أو تقنيين- عملاء للفدرالية. عندما سأشير إليك في الداخل، اتبعني، مفهوم؟

هز يوشيرو رأسه بإيجاز، وأخفى قلقه خلف صمته. ثم تبع أنثارا إلى الداخل.

غير بعيد عن الطاولة، جلس شخص أمام حاسوب موصول بالظرف الذي أتى به يوشيرو، يستخرج المعلومات منه.

لم يسلم يوسف -بطبيعة الحال- من نظرات الازدراء التي أطلقها معظم الحاضرين أثناء تقديمه لنفسه.

لكن يوسف لم يكن ليهتم برأيهم، كل ما كان يعنيه في تلك اللحظة هو سلامة ابنته. وسلامتها على المريخ كانت مرهونة بصمود قوات الثوار، لذلك لم يبخل عليهم بمعلوماته.

بعد دقائق، بينما كانت أصوات التحليل والنقاش تتصاعد في غرفة القيادة، لمح أنثارا اللحظة المناسبة، فأوماً إلى يوشيرو، ثم انسحب بهدوء من المقر، تبعه يوسف وأميليا دون أن يثيرا انتباه إلا شخص واحد كان يراقبهم منذ دخولهم.

قادهم عبر ممر جانبي مظلم داخل الدفيئة القديمة، حتى بلغوا بابًا معدنيًا صغيرًا يكاد يندمج مع الجدار من شدة الإهمال، يقف بقربه تابعون لأنثارا. أدخل أنثارا كودًا سريًا، ففتح الباب على غرفة ضيقة ومعزولة، لا يدخلها أحد إلا للضرورة القصوى.

رائحة المعدن والركود ملأت المكان، لكن الطاولة المستديرة في الوسط، والشاشة المثبتة على الجدار، وأدوات الاتصال القديمة، كانت لا تزال تعمل،

قال أنثارا وهو يغلق الباب خلفهم:

- هنا كنا نعقد اجتماعات الطوارئ سابقًا... قبل أن تتكاثر الوجوه المجهولة في القيادة.

جلس يوسف متحفزًا لا تفارق عينيه أميليا، بينما ظلت هي واقفة قرب الشاشة ممسكة بيد أبيها، تقلب نظراتها بين الوجوه. أما يوشيرو، فكان يتأمل المكان بصمت، يزن احتمالات الخيانة والثقة.

بدأ الاجتماع على الفور، عرض يوسف معلومات تكتيكية تقديمية عن أساليب إنزال الفدرالية للروبوتات الحربية، بحكم أنها أول مرة منذ سنين تفعل هذا مع الثوار، وكانت ترسل فقط جنودًا بين الفينة والأخرى.

حينها بدأ يوشيرو، بصوته الهادئ والعزم في نبرته، يشرح فكرته حول "المحارب"، وكيف يمكن التغلب عليه.

فجأة، سُمعت أصوات خطوات تقترب من الباب، فتوقف الجميع عن الكلام فورًا. ارتفعت أصوات الأرقام أثناء إدخال رمز الدخول، وفتح الباب ليكشف عن أحد الجنرالات واقفًا أمامهم، ينظر إليهم بتجهم ويسأل بحدة:

- ماذا يجري هنا، أنثارا؟

عاد الثلاثة إلى مقر العمليات.

يقف أنثارا ويوشيرو ويوسف وأميليا في صف، كأنهم تلاميذ مشاغبون ستعاقبهم إدارة مدرسة.

قال الجنرال الأعلى رتبة بنبرة صارمة:

- هل تقول إنك تعرف كيف يعمل المحارب؟ كيف؟ من أنت بالضبط؟

أجاب أنثارا بثقة:

- هو مهندس من القمر... وابن يامادا.

نظر أحد الجنرالات، الذي بدا الأعلى رتبة بينهم، بفضول ووقف عن مقعده، فيما شدّ جميع الجنود الآخرون من وضعياتهم العسكرية، بما فيهم أنثارا. اقترب من يوشيرو وهمس بلهجة ساخرة:

- من فم الشبل.

ثم استدار إلى أنثارا وسأله بحدة:

- ولماذا استحق ذلك اجتماعا سريا؟ أتُؤْمَر من جهة غيرنا يا أنثارا؟

أجاب أنثارا بنظرة حادة تحمل أكثر من معنى، كأن كلاهما يعرف تمامًا ما يحمله السؤال من دلالات ضمنية.

جلس الجنرال مجددًا وقال ليوشيرو:

- حسنًا، إذا لم تكن مشغولًا بأمر آخر، فنحن نرحب بأن تشرح لنا الآن، حتى نتمكن من هزيمة ذلك الشيء من صنيع والدك.

تقدّم يوشيرو وأوصى القادة أولًا بعدم مهاجمة الروبوت الذي سيخرج من المركابا. وبعد أن شرح بالتفصيل ما سيحدث، التفت إلى أميليا وطلب منها تنفيذ الإسقاط النجمي لجلب الروبوت إلى المعسكر.

ساد صمت ثقيل الغرفة بناءً على طلب أميليا. جلست على كرسي وأغمضت عينيها، تتنفس ببطء وبطريقة غريبة. ثم فجأة، فتحتهما معلنةً خروجها من جسدها. لم تمر سوى دقائق حتى ظهر الروبوت، تتبعه نظرات الجنود المذهولة في الخارج. دخل المعسكر بخطى ثابتة متجهًا نحو يوسف، ثم احتضنه. وما إن وصل بين

ذراعيه حتى خارت قواه وسكن، وفي اللحظة ذاتها، استيقظت أميليا.

وضع يوسف الروبوت جانبًا وهمس ليوشيرو بابتسامة غامضة تُخفي أكثر مما تُظهر. لم يحتج يوشيرو لشرح، فقد فهمها فورًا.

سأله يوسف، المستشار الحربي السابق للفدرالية، بنبرة هادئة لكن مليئة بالمعنى:

- كيف عرفت؟

وكان هذا السؤال ليوشيرو الدليل الحاسم. تأكد الآن أن الفدرالية تعتمد على وسطاء بشريين من الأركاين لتشغيل روبوتات المحارب.

لطالما راودته الشكوك حول طبيعة ذكاء روبوتات المحارب الفدرالية. لم يكن يصدق وجود ذكاء صناعي قادر على محاكاة الإنسان بالكامل كما تفعل. كان يؤمن بأن لدماغ الإنسان بُعدًا لا يمكن ترجمته بالحسابات، سرًا غامضًا لن تملك رفاهية الأزمات الوجودية حوله آلات، ولم يكن وحده في هذا الإيمان بل كانت أصوات كثيرة أخرى أُسكِتت منذ أن حظرت الفدرالية السابقة أبحاث الوعي وأخفت علماءه.

لكن فكرة استغلال تلك الميزة البشرية هذا الاستغلال... لم تخطر له من قبل.

لم يُجب يوشيرو على سؤال يوسف، بل بادره بهدوء:

- يوسف، أين وسطاء الفدرالية؟

سادت الغرفة سكينة ثقيلة. الجميع أدرك أهمية اللحظة. حتى يوسف بدا مترددًا وقلقًا. ظل صامتًا، ولولا تدخل أميليا، لما نطق بكلمة.

اقتربت أميليا من أبيها، أمسكت بيده، ونظرت في عينيه القلقتين قائلة:

- أبي... أتتذكر من كنت تقاتل لأجلهم على الأرض؟ أتتذكر أمي؟

لم يُجب.

أكملت، بصوت حاسم:

- عليك أن تساعدنا. إذا وصل المحارب إلى هنا، فسينتهي كل شيء. ممَّ تخاف؟

كان يوسف في الحقيقة الوحيد في الغرفة الذي يعرف الجواب، ولو أخبرهم، لما صدّقوه. لم يكن يخاف على نفسه، بل من فقدان ابنته مرة أخرى. كان يخطط للمساعدة بطريقته، ولكن بعدما انكشف سرّ المحارب، لم يعد الصمت خيارًا.

يعلم أنه ما أن يبوح بما يريدون معرفته، سيجد نفسه في مواجهة عدو مختلف تمامًا، حتى نُخب الفدرالية نفسهم يخافون منه.

تقدّم يوسف نحو الخريطة الثلاثية الأبعاد وسط نظرات الثوار المشحونة بالتوتر والترقّب. جلس بجانب الحاسوب، تردد لثواني ثم أدخل الإحداثيات، فارتفعت صورة موقع ما فوق الأرض.

انطلقت بعدها مشاورات مكثّفة، انتهت باقتراح من يوشيرو باستخدام المركابا -أسرع مركبة في حوزتهم- للانطلاق نحو موقع الوسطاء، وتعطيل النظام الذي تعتمد عليه الفدرالية لتشغيل المحارب. كان عليهم إنجاز المهمة في وقت قياسي، قبل أن تبدأ القوات الفدرالية هجومها على معسكرات الثوار، التي كانت تؤوي الآن سكان المدينة المنوّرة.

خرج الجميع من مقر العمليات للتحضير، وانطلق أنثارا مع جنوده. وبقيت أميليا تتحدث مع أبيها، وإلى جانبها يوشيرو.

أما في المعسكر، التقت كريستينا بإيتا والكاهن يعقوب. بدا أن يعقوب كان يعرف إيتا لما كانت صغيرة، قبل أن تُختطف وترحل إلى المريخ ثم إلى القمر. كانت من أوائل الوافدين إلى المدينة المنورة، حيث كانوا يختبئون. كانت مع عائلتها حينها، وقبل أن تخرج في رحلة انتهت باختطافها وبيعها للفدرالية، علّمها يعقوب كيف تخفي قدراتها، لأنهم كانوا يقتلون الوسيطات الإناث، لعدم صلاحيتهن للتجنيد مثل الوسطاء الذكور، لكن كانت الفدرالية تسرق أعضاءهن لاستخدامها لأغراض سرية.

لذلك كانت قدرتها على إخفاء قدراتها تجعلها تبدو كما لو كانت مصابة بالانفصام.

لم يكن يعلم يعقوب سوى أن الفدرالية تصفي الوسيطات، لم يكن لديه علم باستغلال الوسطاء الذكور لتشغيل المحارب. ولو كان يعلم لما تجرأ على التدخل في شؤون الفدرالية. هذا الأمر كان مصدر انزعاج كبير لأميليا التي شعرت بأنها مجبرة على صناعة السلام لوحدها، مهمة ثقيلة لم يكلفها بها أحد. لهذا السبب تمكنت من

إقناع والدها بالذهاب معهم إلى الأرض، ولن تحرم نفسها من فرصة إيقاف الحرب.

انطلق يوشيرو داخل المعسكر يبحث عن الكاهن ليبشره بخبر الرجوع إلى الأرض، فوجد يعقوب جالسًا مع إيتا وكريستينا.

سأل يوشيرو بدهشة:

- لماذا لم تغادري يا مايو؟

ردّت كريستينا:

- لا أستقبل أوامر منك، أفعل ما يحلو لي.

ابتسم يوشيرو كأنه توقع ردها، وقال:

- لن أضطر إلى الاشتياق إليك إذًا.

ضحكت كريستينا وهي تربط شعرها، ثم خاطب يوشيرو يعقوب:

- يعقوب، علينا استخدام المركابا للرجوع إلى الأرض، وإيقاف هذه الحرب.

لم يجب يعقوب، فأكمل يوشيرو:

- جنود الفدرالية سيهاجمون هذا المعسكر، لا يمكننا السماح بذلك، وأنا أعرف كيف أوقفه.

ابتسم يعقوب حينها وقال:

- أخيرًا اكتشفت ما تستطيع وما لا تستطيع فعله، عمومًا، لا تحتاجني، كل ما تحتاج معرفته موجود على اللوحة التي كانت بحوزتك، وإذا كانت سترافقكم أميليا فهي تعرف كيف تشغلها.

أصرت كريستينا على الذهاب معه، فانطلقوا نحو الهضبة حيث حطت المركابا أول مرة، هناك التقوا بأميليا ويوسف وعشرة جنود. لم يستطع أنثارا القدوم معهم بأوامر من قادته.

عودة

نزلت المجموعة إلى الطابق السفلي من المركابا، حيث المكعب الأسود، ودخل يوشيرو وأميليا، التي كانت تحمل اللوحة، إلى المبنى الذي يضم المحرك.

سأل يوشيرو:

- هل أنت واثقة أنك تستطيعين فعل هذا بمفردك؟ ألم يحتج يعقوب إلى الكثير من الوسيطات في المرة الماضية؟

فأجابته:

- بما أن يعقوب أخبرك أنني أستطيع، فأنا أستطيع.

وضعت أميليا اللوحة أمامها، وبدأت تقرأ الكلمات الغريبة المنقوشة عليها بصوت مرتفع. انطلقت الاهتزازات داخل المركابا، وواصلت القراءة حتى خفّت الضوضاء وساد سكون يشير إلى أنهم باتوا في الفضاء.

نظر يوشيرو خارج المبنى، فرأى الروبوت يطفو في مشهد طريف داخل الهرم المُقعَّر. لم تمر سوى دقائق قليلة حتى عادت الاهتزازات، معلنة وصولهم إلى كوكب الأرض.

لم تجد أميليا مكانًا أكثر أمنًا من بحيرة كيوي، فركّزت كامل تأملها أثناء القراءة على ذلك المكان. وهكذا ظهرت المركبا داخل الغابة، قرب بحيرة العملاق، على مقربة من موقع تحطم مركبة يوشيرو.

خرج الجنود أولًا بحذر، يصحبهم يوسف وكريستينا، وتبعهم يوشيرو وأميليا. كان يمكنهم سماع صراخ ودوي رصاص وانفجارات من بعيد، ما دفع يوشيرو إلى التعليق بسخرية:

- أجل، نحن فعلًا على الأرض.

تبعت المجموعة مصدر الصوت نحو بحيرة كيوي، فوجدوه في مواجهة مع الجيش الذي كان يهاجم المدينة المنورة. كان مشهد كيوي مرعبًا؛ يخوض صراعًا من أجل البقاء، وجراح عدّة تنخر جسده، ينزف منها الدم كعيون صغيرة، بينما تتطاير أشلاء أعدائه بين أصابعه وتُسحق تحت قدميه.

لم يتبق من جنود الجيش المتوحش في تلك المعركة إلا القليل، يبدو كيوي منهكًا وعلى شفا حفرة الاستسلام. وكاد يُهلك، لولا تدخل أميليا التي أمرت الجنود بمرافقتها، فأطبقوا على من تبقّى من العدو، واستسلم الباقون، قبل أن يفتك بهم كيوي، تاركًا

جثثهم مبعثرة على الأرض. ولم ينجُ إلا قائدهم، الذي فرّ مبتعدًا على فرسه.

أخذت أميليا سلاحًا من أحد الجنود، وبكل هدوء وثبات، وضعت رصاصتين في كتفه الأيمن، بينما كان يركض على فرسه، تحت أنظار يوسف المندهشة.

كانت أميليا امرأة حرب، لأنها أولًا امرأة سلام. تعرف متى ولماذا تُبقي أعداءها أحياء. تركت القائد حيًّا لاستخلاص المعلومات، عادة اكتسبتها من معارك معدودة خاضتها دفاعًا عن المدينة المنورة.

اتجه الجنود لإحضار قائد الجيش المتوحش، بينما أسرعت أميليا نحو كيوي المنهك، تواسي أنينه. وهرع يوشيرو بدوره إلى مركبته، بعدما رآها عن بعد، وعاد بكل أكياس البودرة البيضاء التي عالج بها ركبته حين تحطمت مركبته هناك. رشّها على جروح كيوي، الذي لم تفارقه روح الدعابة:

- أرى أنك عدت لتكفّر عن جريمة تدنيس بركتي ببولك... حسنًا، سأرجئ أكلك إلى فرصة أخرى.

ضحك يوشيرو وأميليا، قبل أن تقول الأخيرة والدمع يغلبها:

- لحسن الحظ وصلنا في الوقت المناسب.

ثم نظرت إلى قائد الجيش المتوحش المكلّف في أيدي الجنود، وأردفت:

- هؤلاء الأوغاد لا يوقفهم شيء عن نشر الموت سوى الموت.

بدأ القائد الأسير عندها يضحك بهستيريا، ضحكة تعبّر عن جنون دفين، ثم قال بصوت هادئ ساخر:

- طفلة ساذجة.

واصل الضحك بصوت مرتفع، أثار انتباه يوسف، فتقدّم من خلف الجنود، وقد بدأ يسترجع في ذهنه ملامح تلك الضحكة. وما إن اقترب من القائد، حتى خرس هذا الأخير فجأة، وتلعثم قائلًا:

- ي... يوسف!!

اندهش الجميع من رد فعله، وعمّ صمت قاتل المكان. قطعته أميليا:

- أبي... هل تعرفه؟

أجاب يوسف بصوت غريب:

- نعم.

ابتلع الأسير ريقه وتكلم بعد جهد:

- يوسف... يا محاسن الصدف.

لم يرد يوسف، بل اكتفى بالنظر إليه، بينما واصل الأسير:

- أعلم أنني هالك اليوم... لكن عليك أن تعرف أيضًا... أننا في خدمة مخطط عظيم، أسمى من وجودنا كلّه، أنت من دون كل الناس هنا تعرف هذا جيدا.

يرتفع صوته بحماس ذهاني مسترسلا:

- يتطلب إيمان... ستفهم... أنا أيضا فقدت أعز من عندي يا يوسف... أنا أيضا أتألم... لكن الهدف أكبر منا...هِي، أكبر...

ظل يوسف صامتًا، يستحيل قراءة وجهه، وعيناه تومضان بلهيباً جعلت الأسير يتصبب عرقًا، بينما البقية ينصتون، يجهلون عمّ يتحدث. وفجأة، وفي رمشة عين اقترب يوسف منه بسرعة، بعد أن انتزع سلاحًا خلسة من أحد الجنود، وانهال على وجهه ضربًا مبرّحًا، في صمتٍ مروّع.

كان أشبه بمن يحفر لا من يضرب، حتى اختلط شعر القائد الأسير بعظام جمجمته، ودمه، وبقايا وجهه وأسنانه.

أعاد يوسف السلاح بهدوء إلى الجندي، تحت أنظارهم المذهولة، ثم اتجه نحو البحيرة، وجلس يغسل وجهه ويديه من الدم. وبعد أن فرغ، التفت إلى ابنته التي تبعته ووقفت بجانبه تنتظر تفسيرًا:

- ذلك الرجل... ذبحَ أمك أمامي.

وقف وأردف مبتسمًا:

- لا أذكر متى توقفت عن الحلم بهذه اللحظة... لكن يبدو أن ظروف الوجود قد تآمرت لتأتي به، إلى هنا، أمامي، ليموت ميتة تليق به.

تأمل يوشيرو في يوسف قليلًا، ثم سأله بفضول يوحي بأن بداخله رغبة دفينة في انتقام أيضًا:

- كيف تشعر الآن؟

نظر إليه يوسف ولم يجب، ثم أغمض عينيه، واستنشق الهواء بلذة. بدأ كيوي يتحرك، واقفًا حاجبًا للشمس، جروحه شبه مختفية. أحس باستعادة لقوته، فقال بزمجرة هادئة:

- لقد أنقذتم حياتي، لن أنسى جميلكم هذا.

ردت عليه أميليا:

- كنت في الماضي تساعدنا على الفوز في المعارك، واليوم يا كيوي ستساعدنا على إنهاء الحرب.

أومأ برأسه موافقًا يعلم لماذا هم هناك دون أن يخبره أحد، ثم ركبوا مركبة يوشيرو، حيث سيحملهم كيوي نحو موقع الوسطاء الحقيقي، عوض الموقع القديم الفارغ الذي وجههم إليه يوسف في الأول.

انطلق كيوي بخطى مسرعة، يختصر كيلومترات من المسافة، حتى صار على مقربة من الموقع.

وقف، يتأملون المكان: مبنى حديث، قبة شفافة كبيرة مرتفعة على أعمدة ضخمة تعلو حتى طول كيوي.

استغرب يوسف قلة الحراس حول القبة، ثم فكر كيف أن الفدرالية قد تحرص على عدم إثارة الانتباه إلى هذا الموقع عبر تقليل عدد الحراس. لاحظ نصف جثة حيوان مرمية غير بعيد عنهم، فاستدل على وجود حائط بلازما أمامهم على بعد أمتار قليلة. طلب يوسف من كيوي التراجع وإنزالهم حتى يجدوا طريقة لاختراق حائط البلازما.

بعد أن عاتبت أميليا أباها على تسرعه وقتل الأسير الذي كان سيخبرهم كيف اخترق حائط بلازما المدينة المنورة، جاءت كريستينا باقتراح حفر نفق تحت الحائط والانتقال إلى الجهة الأخرى عبره. وافق الجميع على الخطة، وتكفل كيوي بتنفيذها، الذي بدا له الأمر كلعب أطفال.

بدأ فورًا بحفر الأرض قرب الحائط، وبعد لحظات أخرج يده من الجانب الآخر، ثم وضع بضعة جذوع شجر داخل النفق كأعمدة دعم.

اندفع الجنود أولًا داخله، لكن النفق انهار عليهم جميعًا ودفنهم أحياء. بدا واضحًا أن خطة النفق غير آمنة.

مر عليهم وقت يفكرون فيه في حل، فسأل يوشيرو كيوي:

- كيوي، ألستَ قادرًا على استخدام قدرتك لإيجاد الحل؟

رفع كيوي رأسه نحو السماء مبتسمًا، وأجاب:

- لقد أجبتُك بطرق أخرى في كل الاحتمالات، وانتهى بها المطاف بموتنا جميعًا، والجواب الوحيد الذي نجونا به هو هذا الذي أجيبه لك الآن.

نظر إليه يوشيرو مطولًا محاولًا استيعاب قوله، ثم لفّ بصره وقال بسخرية:

- رائع، لدينا عملاق عراف لا يعرف شيئًا.

فكر مزيدا ثم قال:

- لا بد أن هناك شجرة مشابهة لشجرة تفعيل حائط المدينة المنورة هنا في مكان ما. يبدو أن هذا الحائط من الصنع نفسه. علينا أن نفترق حول الحائط لنبحث في لحاء الشجر.

انطلق يوسف مع أميليا، وكريستينا مع يوشيرو، كلٌّ من جهة، يلوحون بغصن شجرة طويل حذرا من الحائط القاتل الخفي.

عثر يوشيرو أخيرًا على شجرة التشغيل، وبعد جهد ولعب بأسلاكها، ألغى الحائط. انطلق كيوي أولًا نحو الحراس، في محاولة لإخافتهم دون قتل، فهرب الحراس مبتعدين فور رؤيته.

ثم عاد، وأخذ يوسف وأميليا وكريستينا ويوشيرو على ظهره، واتجه بهم نحو القبة العالية. كسر أحد نوافذها، ووضع الأربعة داخلها.

داخل القبة، غرف موزعة دائريًّا حول المحيط، وفي الوسط يتدلى كيس ضخم من السقف، تخرج منه أنابيب متجهة إلى كل غرفة.

دخل يوشيرو وأميليا إحدى الغرف ليجدوا حوضًا مائيًا يقف فيه رجل عارٍ، تتصل جمجمته بأنبوب من الخلف، والأنبوب متصل بالكيس الضخم المعلق في وسط القبة.

خرج يوسف وكريستينا من إحدى الغرف الأخرى، وصفا الشيء نفسه.

سأل يوشيرو يوسف:

- ما العمل الآن؟

في تلك اللحظة، أخرجت أميليا سلاحًا صغيرًا من رباطها، ولوحت به نحو الكيس الضخم، فانفجر محدثًا صوت فرقعة بالون، وسقطت منه كتلة رمادية ضخمة براقة، تتحرك كالزئبق على الأرض.

كان هذا هو الكائن الغريب الذي سئم يوشيرو لقاءه دون معرفة ماهيته. تذكره جيدًا، ال"يوردج"، فقد رآه أول مرة في الفضاء قرب المستشفى المهجور، ثم على سطح القمر. ولولا ذلك اللقاء لما التقى بكريستينا في ذلك الملهى الليلي، ولما دس كروفسكي قاتل أبيه الظرف داخل أمتعته، ولما تسبب ذلك في وصوله إلى الأرض واستخدامه اللوحة التي وجدها تحت سرير المحارب، واستمر يستعرض الأحداث في ذاكرته..

هِي

شعور غامض يخوض داخل وجدان يوشيرو، مزيج من ارتيابه وكيمياء دماغ مضطربة بسبب تخلّيه عن الاعتماد على الغاز الحيوي. أحسّ أولا كأنه بيدق تائه داخل لوحة شطرنج، ثم كأنه شخصية ضحلة داخل رواية كاتب مبتدئ. رفع بصره كأنه يرغب في إثارة انتباه الذي يحرك مصيره.

وبينما يستمر يوشيرو في استجواب السماء معانيًا من وطأة نوبة ذهان كان يدخرها له القدر، بدأت الأفكار تتسارع في ذهنه كسرب ذباب داخل قنينة، أصبح على يقين تام باستحالة حرية إرادته، وأن شيئًا ما يتحكم في وجوده من مكان بعيد. بدأت تنتابه نوبة من الهلع، ازدادت حدة تنفسه ودقات قلبه، وارتفعت درجة حرارته. ثم التفّ نحو المدخل الذي لجأوا منه داخل القبة وبدأ يجري، وكريستينا وأميليا تصرخان خلفه، ثم قفز وبصره متجه للسماء، ليتبعه الكائن الرمادي بسرعة فائقة ويحتويه قبل أن يرتطم بالأرض.

اقترب منه كيوي دهشًا، لم ينتبه له، يبدو أن الكائن الرمادي أنقذه في آخر لحظة قبل اصطدامه مع سطح الأرض، ليقذفه من

داخله، وينسل من تحته، ثم يصغر حجمه ويهجم فورًا على رأسه يلف حوله كالخوذة كأنه أخطبوط يلتهم جمجمته.

توقف يوشيرو عن الحركة. لا يرى سوى ظلام دامس.

"أين أنا؟ هل متّ؟"

يهمس لنفسه، فيجيبه صوت ناعم هادئ يبدو كصوته، قادم من نقطة مضيئة بعيدة:

"لا، لقد حييت."

لم يندهش يوشيرو كثيرًا، أحسّ بدفء وأمان لم يعهدهما في حياته، وبدأ الضوء يقترب حتى أصبح كل ما يراه، وسمع نفسه يتساءل:

"أين أنا؟ هل متّ؟"

فابتسم وأجاب:

"لا، لقد حييت."

ثم نفذ من النور ليجد نفسه يطفو في الفضاء، يرى القمر مختلفًا وأكثر جمالًا، تدور حوله حلقات ملونة غريبة، يرى الأسطول الفدرالي الحربي قريبًا منه يستعد للانطلاق إلى المريخ، يرى

الأرض تدور حولها سبع حلقات هي الأخرى تشبه الهالات، ويرى المريخ، وعدد الهالات نفسها.

كل شيء فائق الجمال وواضح، كل الألوان أكثر إشراقًا، حتى الشمس يستطيع رؤية فراغ أسود بداخلها.

ثم أحسّ بشيء ما يجذبه بعيدًا عن كل هذا، فيطفو مبتعدًا، ليُهيّأ له المشهد الجديد:

كائن رمادي هائل الحجم، هائل على نحو لا يصدق، يستقر في محيط المجموعة الشمسية، ويتصل بالكواكب والأقمار بعدد كبير من الروابط التي تعدّ فلا تحصى، وداخل هذه الروابط استطاع يوشيرو رؤية حزمات ضوئية صغيرة تمشي ذهابًا وإيابًا.

لا يفهم ما الذي يحدث، ولا أين هو، وما كل هذا أمامه. هل هذا هو الكائن الذي يتحكم به؟ يوردج؟ هل هذا هذيان؟ حي أم ميت؟ أم الاثنان؟ أم حالة أخرى؟

وفجأة، ومن داخل جسد الكائن الرمادي الهائل، اندلع نور ناعم، يشع كوميض خافت من قلب الظلمة، ثم أخذ يتمدد ويشتدّ حتى غمر الفضاء من حوله. تماوج الضوء، ثم بدأ يتخذ شكلًا بشريًا

أنثويًا، يتكثف شيئًا فشيئًا حتى تجسدت أمامه امرأة، بهيئة لم يسبق لعينيه أن أبصرتا مثلها.

كانت مغمورة بهالة من سكون نقي، يحيط بها نور كأنه خرج لتوه من رحم شمس. ملامحها متناسقة حدّ الإعجاز، عيناها تشعّان بهدوء وشعرها ينساب كأنه نُسج من خيوط الضوء. لا جمالها ولا حضورها كان ملموسًا بالكامل؛ كانت هناك... وبالكاد هناك.

تقدمت نحوه بخطى منزلقة خفيفة، وصوتها يتسلل إليه كهمس في الحلم:

"أنا لست حيث أنتمي... مثلك.
كنت عالقة هنا، لوحدي، حتى جِئتَ."

حدّق فيها مذهولًا، عاجزًا عن النطق للحظات، ثم سألها دون أن يحرك شفتاه: "من أنت؟ يوردج؟"

أجابته:

"لا اسم لي.
نوعك منحني أسماء كثيرة.
خافني بعضكم، عبدني آخرون، والباقي استغلني.
لكنني لا أحتاج اسمًا. أنا ما أنا."

تردّد لحظة، ثم سأل: "ما الذي تريدينه مني؟"

قالت:

"لقد قادتك الإشارات لي، وها نحن نلتقي كما يجب.
أنا من اختارتك...
لأنك الوحيد القادر على أن يرى، أن يسمع، أن يستجيب.
كن قائد النور الجديد وأكمل مهمتك.
كن فاتح الدرب نحو الخلاص.
أعد السلام إلى الأرض، والنور إلى أهلها.
ما أطلبه منك هو أمر واحد... اتبع الإشارات.
دائمًا، في كل زمان، في كل مكان
الإشارات ستقودك."

وابتعدت ببطء، والنور الذي كان يغلفها بدأ يخفت تدريجيًا، إلى أن تلاشى جسدها الشفاف، وعاد يتكاثف من جديد على هيئة خيط ضوئي دقيق، انساب عائدًا إلى الجسد الرمادي الهائل.

ثم انفصل الكائن الرمادي من رأسه وهرب مختفيًا، واستفاق يوشيرو في ذعر لا يوصف، كأنه استيقظ للتو داخل قبر.

بجانبه كانت أميليا وكريستينا مشدوهتين، تقلبان جسده، تتحققان إن كان قد تعرّض لكسر أو نزيف، ثم أعاناه على الجلوس.

- هل جننت يا يوشيرو، لماذا قفزت؟

تسأله أميليا.

ويسأله يوسف بهدوء يخفي معرفة أكبر بما يجري:

- بني، ماذا رأيت؟

ثم تصيح كريستينا كأنها فكرت في نفس ما فكر فيه يوسف:

- تكلّم، ماذا رأيت؟

لحظات عسيرة على وعي يوشيرو المشغول باستيعاب وترتيب ومحاولة فهم ما رآه للتو. لا يستطيع الرجوع إلى الواقع الآن بما يكفي ليجيب على كل تلك الأسئلة. لديه أسئلته الخاصة، تكفيه، فظل صامتًا. وقف ومشى، وهم يرمقونه يلتفتون إلى بعضهم في حيرة.

- أين أنت ذاهب يا يوشيرو؟

يسأله كيوي بصوته الجهوري، كأنما أعاد إليه بعض صوابه.

توقّف، نظر إلى كيوي مطوّلًا، ثم قال بصوت متقطع: "هل تستطيع الإجابة على ما سأسألك؟"

أجاب كيوي: "نعم".

صمت يوشيرو لحظة، يتنفس بصعوبة، وعيناه شاخصتان كالمجنون، ثم قال:

- هل هي يوردج؟

أغمض كيوي عينيه، ورفع رأسه نحو السماء.

استغرق وقتا أطول من المعتاد ثم قال:

- لا شيء اسمه يوردج، ما اختبرته الآن هو آثار جانبية لتوقفك عن تعاطي الغاز الحيوي ولمسك للمادة الرمادية. هذا هو مرضك، عتمة شيفر. لقد صُمم الغاز ليُحدث هذه الآثار بعد أخذه والتوقف عنه، والفدرالية خدعت الناس حين جعلتهم يظنون أن الغاز هو العلاج، بينما في الحقيقة، هو الفيروس نفسه. الطريقة الوحيدة للشفاء، هي ألا تصدق الأوهام التي يصنعها لك. كلما صدّقتها، ازدادت العدوى انتشارًا فيك. وكلما شككت فيها، بدأت تتعافى.

اقترب يوسف عندها من يوشيرو وقال:

- يا يوشيرو، الأمر أكثر تعقيدًا مما تظن. الاتصال مع تلك المادة الرمادية خطير جدًا... ما الذي رأيته؟ كائن هائل عجيب خفي يبسط مجسّاته على المجموعة الشمسية، صحيح؟

اتسعت عينا يوشيرو وهو يحدّق في يوسف، بينما الأخير يكمل:

- أجل، هذا ما يراه أغلب من يلمس هاته المادة. ليس الأمر كما تظن، ما رأيته ليس الحقيقة.

هدأ جنون يوشيرو قليلًا وسأل:

- ما الحقيقة إذًا؟ أخبرني، أنت الذي توحي كل حركاتك بأنك تخفي أسرار الكون... ما الحقيقة؟ أتحتاج خمرًا لتبوح؟

ثم عاد جنونه فجأة، وبدأ يصيح في الجميع:

- ما الحقيقة؟ أخبروني! ما هذا الشيء؟ من أين أتى؟ لماذا تتصرفون جميعًا كأنكم تعرفون شيئًا لا أعرفه؟!

تجيبه كريستينا:

- تلك الكتلة في الكيس الذي وجدناه داخل القبة... صُنعت من المادة الرمادية المستخرجة من أدمغة وسيطات الأركاين.

توقفت عن الحديث، نظروا نحوها في ذهول، وبدأ يوسف يفرك وجهه باشمئزاز ممزوج ببعض العار. اقتربت كريستينا من يوشيرو الذي بدت عليه الصدمة، وقالت له بصوت منخفض:

- الفدرالية كانت تختطف الوسيطات... وتعيد تدويرهن. وهكذا بنوا ذلك الكيس الكبير من المادة الرمادية.

سأل يوشيرو حينها، مذهولًا:

- وصارت حيّة؟ كيف؟

قال يوسف بسرعة، كأنه يريد أن يمسك زمام الحديث:

- انظر، يوشيرو... مهما كان ما رأيت، فليس حقيقيًا. أرجوك، لا تصدق أي كلمة مما قيل لك داخل ذلك الحلم.

ثم أضاف بنبرة مثقلة:

- رأيت امرأة، أليس كذلك؟ امرأة ملائكية؟

أجاب يوشيرو:

- نعم...

يكمل يوسف بنفس الحزم:

- هي ليست حقيقية، ولا خيالية. ما رأيته هو إسقاط كيان شبه واعٍ، نشأ نتيجة دمج كميات هائلة من المادة الرمادية البشرية، من أمخاخ عشرات الآلاف من الوسيطات. هذه المادة تُستخرج

وتُكثّف داخل وسط حيوي معزّز، وبمجرد بلوغ الكتلة الحرجة، تبدأ الشبكات العصبية ذاتيًّا بالتواصل داخليًا، مما يؤدي إلى تشكّل وعي طارئ. يمكن برمجة شخصيات وكينونات فردية داخل هذا الوعي، للتواصل مع الغدد داخل الروبوتات عن بُعد والتحكم بها. أنا لا أعرف حقًّا أكثر من هذا، صدقني. لكني أعرف أن ما أخبرتك به كذب.

نظر يوشيرو إلى يوسف بعينين حزينتين ثم سأل ما لا يريد حقّا سماع إجابة له:

- هل كان يامادا يعرف بكل هذا؟

تردد يوسف لحظة، وتنفس ببطء دون أن يرفع عينيه.

فصرخ يوشيرو بغضب:

- أجبني!!!!

رفع يوسف بصره أخيرًا وقال بصوت منخفض مثقل:

- أبوك من صنعه.

نظر يوشيرو عندئذ ببصره نحو القبة مبتسمًا، ضحك، ثم سكت، ثم قال:

- صنعه، وأنا حطّمته... لا مزيد من الحروب.

تتوجّه أميليا نحوه وتضمه وتقول:

- لا نعرف ذلك بعد، علينا الاتصال بالثوار للتأكد أن الأمر نجح.

لجم جنونه بحضنها قليلا، ووضعت يديها على ذراعيه تنظر إلى عينيه، فارتفع حاجباهما معًا فجأة، واتّسعت أعينهما كأنّهما اكتشفا الشيءَ نفسه للتو بعد أن اقتربا من وجه بعضهما بما يكفي.

ثم ساد ذلك الصمت الطويل الذي تحتاجه العقول لترتيب الأفكار، قاطعته أميليا وعيناها تشعّان بذلك البريق الذي يعجب يوشيرو، بل يعيد إليه بعض صوابه لوهلة، تذكّرت الحلم:

- حلمتُ بهذه اللحظة بالتحديد، أنظر إليك.

أراد يوشيرو أن يخبرها عن حلمه أيضًا الذي رآها فيه، لولا هدير مركبة سيباستيان تحطّ غير بعيد عنهم، ويخرج منها هذا الأخير مع ميمون.

- سيباستيان؟؟

يتعجّب يوشيرو.

- اللعنة، لقد قلب وجودك هنا أسفل الفدرالية على أعلاها.

يصيح سيباستيان من مكانه.

تسأل كريستينا ميمون بسرعة:

- أين إيتا؟

ليرد هو:

- مع يعقوب، وهم في طريقهم إلى القمر.

اقترب سيباستيان حينها من يوشيرو، ثم أمسك معصمه ولف حوله جهازًا أخرج به الشريحة التي وضعتها الفدرالية في معصم كل سكان القمر، ثم أردف وعلى وجهه ابتسامة نصر عريضة:

- لقد هجموا على معسكرات الجيش الحر في المريخ، لكنهم فقدوا السيطرة على روبوتات المحارب قبل الوصول إليها بقليل، ونصب لهم الثوار كمينًا، فاستولوا على المركبات. بعضهم في طريقه إلى هنا.

سأل يوشيرو بفضول قلق:

- هل كانت الفدرالية تعرف مكاني طوال الوقت؟

أجاب ميمون:

- شيئ ما حدث في مقر الفدرالية اليوم، في مصانع القمر. أحد العاملين في محطات الإطلاق أفسد أنظمة إقلاع الرحلات.

نظر يوشيرو في الفراغ محاولًا تذكر شيء ما، وهمس لنفسه:

- دريك...

ثم استرسل سيباستيان:

- والمتمردون في المريخ تحالفوا مع قبائل الأركاين، وهم في طريقهم إلى القمر على متن سفن الفدرالية التي استولوا عليها.

سأل يوسف: "ومقر الفدرالية؟"

يجيبه سيباستيان مبتسمًا:

- الأسطول الأول فرّ هاربًا بعمال المصانع، إلى هنا.
- قادمون إلى هنا؟

يسأل يوسف دهشًا.

- أجل، أظن أنهم هاربون إلى باطن الأرض.

تسأل أميليا

- هل باطن الأرض آمن؟

يجيب سيباستيان.

- هناك مواقع آمنة، لا زلازل ولا فيضانات ستصلها.

ثم تكلّم كيوي كأنه يحاول تنبيه الزوّار الجدد بوجوده:

- أعرف مدخلًا قريبًا لمكان آمن في باطن الأرض...

فزع سيباستيان من كيوي لوهلة، ثم أرغم نفسه على الهدوء وقال:

- أجل، هنا مدخل قريب، كنتُ في طريقي إليه، قبل أن أجد إشارة يوشيرو في الاتجاه نفسه.

سألت كريستينا وهي تشعر بالضغط من تسارع الأحداث:

- ماذا سنفعل الآن؟

ليجيب يوسف:

- لا أعرف عنكم، لكنني أفضل أن أمضي بقية حياتي مع ابنتي الوحيدة في مكان آمن.

ثم اقترب من ابنته أميليا وضمّها قائلًا:

- سنذهب مع سيباستيان.

نظر سيباستيان إلى كريستينا تنظر إلى يوشيرو:

- كريستينا، يوشيرو، ما رأيكما؟

لم يعد يوشيرو الشخص نفسه بعدما حصل له مع تلك التي قابلها، وبعدما اكتشف حجم تورط أبيه. طوال حديث رفاقه كان شارد الذهن، لا يرفع عينيه الناعستين عن الأرض، يبدو مخدرًا بأفكاره وخياله، لا يهمه ما سيحدث لاحقًا، حتى عندما جرته كريستينا نحو مركبة سيباستيان، لم يكن ليقاوم لأي سبب مهما كان.

حل الليل بسرعة، رجع كيوي إلى بحيرته، وركب الجميع داخل المركبة، في طريقهم نحو المدخل إلى باطن الأرض ليجدوه مردومًا، فأضحك ذلك يوشيرو.

تصرفاته الغريبة تقلق الجميع، خاصة كريستينا، التي تحاول الحديث معه: يوشيرو! هل أنت بخير؟

نظر إليها بعينين مجنونتين قليلًا وقال:

- ظننت أنه لن يعرف أنني سأقفز، فقفزت لأتأكد من ذلك.

انتبه الجميع إلى كلام يوشيرو الغريب، فسألته كريستينا مرة أخرى:

- من هو؟ من الذي ظننت أنه لن يعرف؟

أجابها بابتسامة تليق بنظرته المجنونة: أنت.

ثم استرسل، مشيرًا إلى يوسف وأميليا وميمون وسيباستيان:

- وأنت، وأنت، وأنت، وأنت...

ثم أشار إلى نفسه:

- وأنا، وهو، ونحن... يتحكم في كل شيء... هو الذي ردم المدخل... هو الذي قتل الجنود تحت النفق... هو الذي يعرف كل شيء...

لم تستطع كريستينا تحمل الموقف، وبدأت تشك أن يوشيرو فقد عقله حقًا، فضمته إلى صدرها لتسكته، فنام من فرط التعب.

التفت سيباستيان نحوها، ورأى الحزن والوجوم على وجهها وهي تحتضن رأس يوشيرو النعسان في حجرها، فحاول طمأنتها:

- لم يكن بإمكانك معرفة أن الأمور ستصل إلى هذا الحد.

تنهدت ثم قالت:

- كان بإمكاننا على الأقل أن نحضر له معنا جرعة تعزيزية.

هزّ سيباستيان رأسه بحزن وأجاب:

- أنتِ تعلمين أن ذلك كان سيزيد وضعه سوءًا.

ثم تدخلت أميليا بسؤال قلِق:

- هل ما زلتم تأخذون الغاز الحيوي؟ كيف أنتم بخير وهو لا؟

أجابها يوسف:

- ملاعين الفدرالية أعطوه غازًا حيويًّا خاصًّا، نفس الغاز الذي يعطوه لذلك الجيش الإرهابي الذي التقينا به.

المونة الأولى

استيقظ يوشيرو داخل المركابا الهرمية، حيث قررت المجموعة قضاء الليلة قبل متابعة البحث عن مدخل آمن إلى باطن الأرض عند الفجر، على أمل العثور على مأوى يحميهم من تقلبات الأرض وكوارثها القادمة.

استفاق أقل اضطرابًا من قبل، ليجد كريستينا نائمة إلى جانبه، أصابعها ملتفة في خصلات شعره، كما لو أنها كانت تحك رأسه وهو غارق في نومه. ابتسم بخفوت، حرر يدها برفق، قبّل جبينها بهدوء كما كانت تفعل، ونهض دون أن يوقظ أحدًا.

لمح الفراغ بجانب النيام خاليًا من أميليا. خرج من الغرفة، فرآها واقفة بعيدًا بجانب العمود الذهبي، تحدق عبر نوافذ الهرم في القمر المتألّق في السماء، بدا أكثر إشراقًا، وأكثر حرية من أي وقت مضى. تلف رداءها حول كتفيها، وما إن شعرت به خلفها حتى التفتت نحوه، ببطء، كأنها تنتظر أن يتحدث بكلام نجا من الذهان.

قال بصوت خافت:

- أميليا.

نظرت إليه طويلًا، لا ابتسامة على وجهها ولا قلق ظاهر، فقط مزيج مربك من الترقب والفضول. ثم اقترب منها ووقف بجانبها. لم يتبادلا كلمة لبعض الوقت، فقط كانا هناك، تحت ضوء القمر.

جلس يوشيرو على الأرض فجأة كأنه شعر بالدوار، ثم استلقى بهدوء. لحقت به أميليا وجلست إلى جواره، عيناها لا تزالان تبحثان في ملامحه عن شيء مألوف.

همست:

- حلمت بي أنت أيضا.

أجابها بعد صمت قصير، بصوت مُتعب:

- أتساءل إن كان يجب أن يكون بلا معنى أيضًا، مثل حلمي البارحة الذي يصرّ الجميع على أنه لا يعني شيئًا.

صمتت أميليا، تتزاحم في رأسها عشرات الأسئلة، تتردد في طرحها عليه لأنها لا تعرف حاله بالضبط.

فصمتت، واكتفت بالنظر للقمر.

قطع يوشيرو هدوء اللحظة كأنه يخشى من أن يبتلعه الصمت للأبد، وقال ببوح خائف:

- أشعر كأنني كنت أنتمي لشيء حقيقي، ثم توقفت فجأة عن ذلك.

اقتربت أميليا منه، أمسكت يده، وقالت:

- أنت هنا الآن، وهذه يدي تمسك يدك، وهذا حقيقي.

أغمض عينيه بتعب، أنهكته الأفكار، ثم همس:

- لا أدري ما الذي سيبقى مني بعد هذا...

اقتربت منه أميليا أكثر، وأحاطته بذراعيها، كأنها تحاول احتضان روحه قبل أن تنفلت من مسام جلده، وقالت:

- إذًا دع ما بقي فيك يستريح، فقط للحظة.

استسلم يوشيرو لحضنها، ثم أغمض عينيه واستسلم للنور، ودق قلبه الآدمي لآخر مرة.

لم تشعر أميليا بالجثة الهامدة بين أحضانها فورا، فقط عندما توقفت لحظة لتنظر إليه بعد أن ثقل وزنه، التقت أعينها بأعين ميتة لا يخفى عليها مثيلها. انتفضت في رعب، وقفت ثم جلست، ابتعدت

قليلًا ثم اقتربت، حرّكته، نادت اسمه، قاست نبضه ثم تنفّسه، وحاولت الضغط على صدره لإرجاعه إلى الحياة... لا شيء.

ذهبت أميليا إلى مدخل المركابا مذهولة ثم عادت، تصفع وجهه تارة، وتقلب كفه الأخرى، ثم اندفعت إلى الداخل تصرخ، صوتها يخترق سكون الليل:

- أبي!

نهض الجميع على وقع صياحها، عيون نصف نائمة.

- ماذا؟ ماذا هناك؟

يسأل يوسف.

لم تستطع أميليا أن تنطق. أشارت فقط بيد مرتجفة نحو مخرج المركابا.

خرج يوسف وكريستينا ليجدا يوشيرو ملقى على الأرض جثة هامدة، عيناه شاخصتان نحو القمر.

ركعت كريستينا بجانبه، تقيس نبضه، تتحسس عنقه، ثم حدّقت في وجهه.

عرفت في لحظتها، من اصفرار جلده وسكون ملامحه، أنها ذبحة قلبية، أسوأ ما يمكن أن يحصل لمن يتوقف عن استهلاك الغاز الحيوي.

كان من المفترض أن يصل للمريخ ويأخذ حقنته السنوية المضادة لهذا، غير أن تغير اتجاهه نحو الأرض منع ذلك.

ولم تستطع كريستينا سوى الغرق في إحساس حارق بالذنب.

أما أميليا، فوقفت قرب مدخل المركابا تتشبث بجسدها المرتجف وتبكي بكاءً لا صوت فيه.

أخذت أرواحًا بيدها مئات المرات، ورأت الموت وجهًا لوجه آلاف المرات، لكن موت يوشيرو بين ذراعيها كان صفعة لجهازها العصبي، لم تكن تتوقع أن يكون هذا مشهده الأخير.

لا تستوعب كيف يموت الأبطال بأيدٍ غير أعدائهم.

اتجه نحوها يوسف، ضمّها، وسألها:

- ما الذي حصل يا ابنتي؟

تتلعثم في جوابها:

- لا أعرف... كنا جالسين، كنا... كنا جالسين، ك...

خانها لسانها، ثم غرقت في حضن أبيها تبكي.

خرج ميمون وسيباستيان في ذهول مما حصل، يشاهدان كريستينا وهي تضغط على صدر يوشيرو ضغطًا هيستيريًّا.

هرع سيباستيان نحو مركبته القريبة وأتى بعدة طبية، جربوا كل شيء، لكن فشلت كل محاولاتهم.

عند بزوغ الفجر، سارت أميليا متكئة على كريستينا، خلف سيباستيان وميمون ويوسف، وهم يحملون جثمان يوشيرو ليواروه الثرى.

كانت أميليا غارقة في الانهيار، تهزّ رأسها بشرود، لا ترى شيئًا سوى وجهه الميت. عيناها معلّقتان بجسده المحمول على الأكتاف، تنتظر، رغم كل شيء، أن ينهض أو يحرك طرفا.

للحظة، خُيّل لها أنه تحرّك. اقتربت بعينيها، تحدّق، تكاد تلتقط أي إشارة حياة... لكنه كان ساكنًا، ساكنًا كالنهاية، وكالبداية.

كانت تهمس بذعر، كما لو أنها تحاول إقناع الكون:

- لا... لا يموت... لا يموت... لا يموت...

وكانت كريستينا تحيطها بذراعيها، ودموعها تنساب بصمت.

انتهت مراسم الدفن بصمت ثقيل. وكان يوشيرو حاضرًا جنازته، يطفو في الأرجاء طيفًا، معتقدًا هو الآخر أنه مات فعلًا.

تلك إحدى الآثار الجانبية لجرعات الغاز الحيوي المصممة خصيصًا له؛ فعند فقدان الجسد لجرعات الغاز، يدخل في حالة تحاكي الموت تمامًا، بينما يُسقط وعيه خارجه، في شبه موت سريري.

بقي يوشيرو قرب قبره، ساكنًا، يعتقد أنه توفي، مستعد أخيرًا للهجرة التي طالما حلم بها.

عاد الأربعة إلى المركابا، ثم انطلقوا مجددًا بحثًا عن مدخل جديد إلى باطن الأرض.

أما أميليا، فرفضت مرافقتهم. أصرت، فجأة، أن تبقى وحدها، تنتظر عودتهم. جلست تحدّق في الفراغ، وعقلها لا يزال عالقًا في آخر لحظة مع يوشيرو، عاجزًا عن تصديق موته. كان كل شيء ساكنًا وثقيلاً، حتى لاحظت شيئًا يتحرك على هامش نظرها.

ذلك الكائن الرمادي.

كان يقف هناك، بجانب الروبوت المستلقي في أحد جنبات الحيطان، يراقبها. تجمدت مكانها، قلبها يخفق بتوجس. لم تكن تعرف إن كانت تخافه... أو تحتاجه.

خطا الكائن خطوة إلى الخلف، ثم أشار نحو الروبوت بإيماءة خفيفة، ثم إلى الخارج، نحو اتجاه القبر... ثم اختفى، كما ظهر.

حدقت أميليا في المكان الذي كان فيه، لا تدري ما الذي يعنيه، أو إن كانت تتخيله فقط، ثم رفعت بصرها إلى الروبوت، شيء في أعماقها تحرك، حدس يشبه ماكانت تشعر به وهي تتدرب مع يعقوب على الوساطة. نهضت تمشي ببطء، كأنها تمشي في كابوس، ثم توقفت عند الباب، مترددة. نظرت إلى القبر البعيد، ثم إلى الروبوت مجددًا.

عادت فكرة الكائن إلى ذهنها، وفجأة، كأن قطعة مفقودة استقرت في مكانها، فركضت نحو القبر، تحفر الأرض بيديها العاريتين وتضرب بقدمها مُكسرة الحجارة، حتى وصلت إلى جسده، سحبته بذراعيه وكنست التراب من عليه، ورفعته على ظهرها بكل ما بقي فيها من قوة.

حملته إلى المركابا، وأدخلت الجثمان إلى المبنى الأسود، ثم وضعت الروبوت إلى جواره. وقفت متجمّدة، يعتريها خوف مبهم، لا تدري ماذا تفعل. راحت تنظر حولها، تبحث عن الكائن ليخبرها بما يجب أن تفعله الآن.

طال الانتظار... حتى انفجرت بالصراخ:

- أين أنت؟! ماذا الآن؟!

فجأة، زحف الكائن الرمادي إلى الداخل كالتمساح، ثم ما لبث أن تحوّل إلى هيئة آدمية قزمية بلا ملامح، يحمل حجرًا أحمر يسبح داخل بطنه الشفاف. قذف الحجر بجانب أميليا، وبدأ يشير ويضغط بيده التي دون كف أو أصابع على صدر يوشيرو.

أخذت أميليا الحجر الأحمر بين يديها، وهي تستقبل إرشادات لا حسيّة كالخواطر من عند الكائن الرمادي، تفتّش لباس جيوب يوشيرو تفتيشًا محمومًا، حتى لمست يدها في أحد الجيوب كتيّبًا، أخرجته تتأمل فيه، ثم عرفت في التوّ ما العمل.

أسرعت كأنها تسابق الموت، تبحث عن صفحة من الكتيّب حتى وقعت عليها. بداخلها دائرة تتوسطها رموز وأشكال هندسية وأرقام ثنائية من وحدات وأصفار. بدأت تنقل وترسم كل شيء على أرضية المكعب الأسود داخل الهرم حتى انتهت، ثم أشار عليها حدسها الذي لم تعد تفرقه عن همسات الكائن بدفع جثة يوشيرو والروبوت داخل الدائرة جنبًا إلى جنب، ففعلت. توقفت لتلتقط أنفاسها، ثم بدأت تقرأ من الكتيب النص المكتوب تحت الرسمة وهي تبكي.

لم تحدث اهتزازات داخل المركابا هذه المرة، لكن حدثت داخل الجثة وداخل الروبوت أيضًا. اهتزّا معًا، كما لو أن شيئًا خفيًّا يربط بينهما، يستحثّهما على النهوض.

انتهت أميليا من القراءة، ورفعت رأسها لتتفاجأ باختفاء الجثة كليًا خلف نور ساطع، كأنها تبخرت في الهواء. لم يبقَ سوى ملابس يوشيرو التي دُفن بها. جلست مذهولة، ترقب الروبوت بصمت، وقلبها يصرخ:

"تحرّك... تحرّك... تحرّك!"

كان الهدف من الطقس السحري الذي اقترحه الكائن الرمادي الذي شعرت به أميليا هو إعادة يوشيرو من الموت عبر جذب "كينونته العقلية" - ذلك النسيج الخفي من المعلومات الكمية السابحة في الأثير، من الوعي والذاكرة والتجربة والقرارات التي شكّلت ذاته عبر السنوات إلى جسد الروبوت المصمم بتقنية المحارب، مع منظومته الدقيقة التي تحاكي الجسد البشري، مزوّدة بغدد صناعية وبيئة داخلية مهيأة لاستقبال عقل متجسّد.

لم تسعف قدرات أميليا الحدسية في فهم ما كان حقا يحدث. لم يكن الأمر يتعلق باستعادة الروح حرفيًا، فذلك مستحيل، فقط ما كان يجعل يوشيرو هو يوشيرو: محتوى فردانيته الخاصة، طريقته في

التفكير، ردود أفعاله، صراعاته الداخلية، والتشققات الدقيقة التي صنعت هويته، هي كل ما كان يهم الكائن الرمادي، أداة اختارها بعناية ورتّب كل خطوة لتصل إلى هذه المرحلة، من أجل مخططه الأكبر الذي سيدخر يوشيرو عبر الزمن والأبعاد من أجله.

أما في الجهة المقابلة لأميليا، فقد استيقظ يوشيرو فعلًا داخل الروبوت، واستغرقه الأمر بعض الوقت ليستوعب ما حدث... ومَنْ هذه الفتاة التي تنظر إليه منذ ساعات.

تذكّر الحلم الذي رآه على سطح القمر، ثم وعي فجأة بكل ما حدث. لكنه لم يكن قادرًا على التحرك.

كان يعلم أن الكائن الرمادي هو من أعان أميليا على إعادته. لكن ما لم يفهمه هو لماذا لم يُرها الحلقة المفقودة من الطقس... الخطوة الأخيرة التي وحدها كانت كفيلة بمنحه القدرة على الحركة.

وكان يعرف أيضًا أن مركبة سيباستيان لن تعود. لقد دُمّرت أثناء محاولة خروجهم من ذلك الغار الذي كانوا يستكشفونه. ويعلم أن يعقوب يعرف تلك الحلقة المفقودة، وسيكون لهما لقاء عما قريب. بل الأعجب من ذلك... أن كل سؤال يخطر في ذهنه، كان يجد إجابته فورًا، كل الأسئلة عدا التي تخص الكائن الرمادي.

لم تفقد أميليا يومًا الأمل في رجوع يوشيرو، وبمساعدة كيوي، والرسائل الحدسية التي كانت تتلقاها دون وعيها من الكائن، وضعت الروبوت في تابوت من الجرانيت داخل الغرفة المكعبة السوداء في الهرم، لا تدرك أن يوشيرو حي داخل الروبوت، يعي كل ما يحدث في العالم رغم بقائه في قبره داخل الهرم.

عاد يعقوب مع ساكني المريخ جميعًا إلى الأرض بعد بضعة أشهر من انتهاء الحرب، ولم يترك الثوار أثرًا على القمر أو المريخ. فقد أزالوا كل الدفيئات، وتكفلت قرون من عمل الطبيعة بطمس ما تبقى. وعاد كوكب المريخ إلى مداره الأصلي، واختفت منه كل معالم حياة الثوار، ما عدا الأنفاق في باطنه والمساكن في باطن القمر، الذي نُقِّيَ من أي مخلفات اصطناعية من طرف العائلات السرية التي كانت تتحكم في الفدرالية، تمهيدا للنجاة من "إعادة الضبط" داخل هرم على القمر. أما الأرض، فكانت على موعد مع انقلاب أقطابها، ما سبَّب فيضانات ودمارًا كافيًا لإعادة تدوير معظم القاطنين عليها، ولم ينج من كل ذلك سوى القلة التي اختبأت في جوف الأرض. لكن لا أحد فوق الأرض نجا من إعادة الضبط، سوى يوشيرو، ويعقوب، وإيتا.

الكائن الرمادي اضطراب نشأ في رحم الكون في ظرف غامض. لم يكن خطأً في التصميم، ولم يكن حتى متجسدًا بالكامل؛ بل كان في أغلب حالته مجرد احتمالٍ يطفو في حقل الاحتمالات، يبحث عن طريقة لتجسيد نفسه. لكن الكون كان يقاومه؛ فرِياضيات الطبيعة لا تناسب رِياضياته، ولا مكان له في الوجود. لذا، كانت المنظومة تقاومه دائمًا بالتصحيح وطرحه من النظام وحذفه كلما تسلل إليه، ثم صُنِع جدارٌ أمني ضده.

غير أن ذلك لم يكن ممكنًا دفعةً واحدة، ولا في كل الأبعاد. فكان في كل بُعدٍ ينتقل إليه، يحاول التسلل، فيُطرح وتُصفّى الأوعية التي كان يمكن أن تجلبه، ويُثَبَّت نظام الحماية داخل نسيج الواقع ضده.

لكنه تعلّم من كل الأبعاد التي عبرها، واكتسب قدرات وطرقًا ملتوية وخدعًا تمكّنه من اختراق أعمق وأوسع في كل مرة، فكان يختار في كل بُعدٍ طريقةً مختلفةً للتجسد، وحدث هذه المرة أن كانت تجربة يامادا والفدرالية في بُعد يوشيرو محاولة أخرى من محاولاته لكنه، وبدهاءٍ عظيم، اكتشف سرًّا قد يمكّنه أخيرًا من التجسد. فعلى غرار محاولاته السابقة، صنع في بُعد يوشيرو مقاومة مزيفة، دعمها وربط نفسه بها، فاستعملتها المنظومة لإيقافه.

إذ صنع هذه المرة ظروف الفساد، وظروف تصحيحه كذلك. عبر "أخوية النور" وتفجير 11/11، استطاع أن ينزل من بُعد الاحتمالات بما يكفي ليتواصل ويتجسد على هيئة الكتيّب والكائن الهلامي الرمادي، الذي سيستعمله للتواصل مع يوشيرو لاحقا، لإسقاط الفدرالية وتدمير الكيس الضخم من المادة الرمادية في مركز الوسطاء الذي كان من المفترض أن يتجسد عبره.

وما كانت هذه إلا المرحلة الأولى من عمليته التي نجحت بعد أن تمكّن يوشيرو من النجاة بذكرياته ومشاعره المرتبطة بالكائن من التصحيح الطبيعي للأرض، دون روحه التي قد تُشكّل مقاومة، فاستطاع الرمادي لأول مرة أن يُمرّر إرادته داخل المنظومة نفسها دون أن تُفَعَّل آليات التصحيح وتُرفض، لأنه جعل وسيطه، يوشيرو، يتجنّب شكوك المنظومة بكل الطرق الممكنة، وفتح لنفسه بوابة للاستمرار والتوسع داخل الوجود، من داخل النظام هذه المرة، لا من خارجه. فما لم تكن أميليا تدركه، هو أن الطقس السحري الذي نفذته لم يكن فقط وسيلة لإعادة يوشيرو إلى الحياة، أو بالأحرى لإعادة محتواه العقلي، بل كان بوابةً لنقله إلى واقعٍ موازٍ، حيث تستمر الأرض بطريقة مختلفة، وحيث انتقل الكائن الرمادي ليُكمل ما بدأه في البُعد السابق.

التصحيح ظاهرة طبيعية نابعة من إرادة الخالق، تحرص على سير الأكوان وفق قوانين الخير والتطور. أما إعادة الضبط أو ما كان معروفاً أكثر بمصطلح الـReset، فهو تعريف زائف للتصحيح، تقليد كاذب نابع من إرادة الرمادي، يخدع به العائلات الحاكمة والنخبة في بدايات كل حضارة، وفي كل بُعد جديد ينتقل إليه.

يوهمهم بأنه، إن وثقوا فيه ومنحوه إرادتهم، فسيمنحهم ما شاؤوا في الأرض، ليعيشوا فيها خالدين لا تمسّهم إعادة الضبط. كانت هذه الأخيرة مجرد ظاهرة طبيعية دورية تحدث في الواقع عبثيًّا، فكانت هذه الأفكار المزيفة لإعادة الضبط من بين الأسرار التي كانت هذه العائلات تتباهى بمعرفتها، لكن أنفسهم البشرية الضعيفة الشغوفة بالتعرض للإعجاب والاحترام والتقدير جعلتهم يشاركون هذه الأفكار والعلوم داخل أخويات سرية وتجمعات من تنظيمهم، يمنحون فيها لبعضهم ألقابًا ونعوتَ تعظيم كـ"المعلم الأكبر" و"المحفل الأعظم"، وتربطهم حتى بمن سيخدم مهامهم لاحقًا.

وهكذا كان الرمادي يقنع العائلات القديمة في كل بُعد، ويكلفهم بمهام وأجندات تتوارثها الأجيال. كان يوحي لهم في كل بُعدٍ بطقوسٍ وأنظمةٍ سحرية وعلومٍ سرّية، ويساعدهم في تمكين السلطة

والقوة والحكم، ليعيثوا في الأرض فسادًا وحروبًا، تنتج ما يكفي من الرياضيات السالبة التي يتغذى عليها من وراء حجاب الوجود، من حقل الاحتمالات حيث يكون.

وعندما يتغذى ويقوى من الوعي الجمعي للناس، وتزداد كثافته ويبدأ في النزول إلى الواقع، كانت الطبيعة عادةً تُشغّل نظام الحماية فتُعيد التصحيح، ويحدث ذلك غالبًا عبر الفيضانات والكوارث الطبيعية، فيُصاب الوعي الجمعي المتفسخ بالتنويم والنسيان، ويعود الإنسان للظهور من جديد في شكل بدائي، بجانب بقايا معالم حضارات قديمة جدًا نُسيت.

أما وعد الخلود، فكان يتحقق لتلك العائلات عبر التزاوج الداخلي، جيلًا بعد جيل، لمئات السنين. وكان هذا يُفعّل ظاهرة غريبة، تنتقل فيها الشخصيات والعقول والذكريات عبر الدم، فتنتقل العقول القديمة إلى الأجساد الجديدة داخل نفس العائلة.

وهكذا ظلّت أجنداتهم خالدة، وخططهم طويلة النفس، وتاريخهم متجسدًا فيهم، يُلحّ عليهم، ويفرض نفسه واجبًا مقدسًا لا يسقط بالتقادم.

كان الرمادي يعدهم كذلك بالنجاة من "إعادة الضبط"، عبر طقوسٍ تُجرى داخل أهرامات تُبنى خصيصًا لذلك، وتُدفن فيها

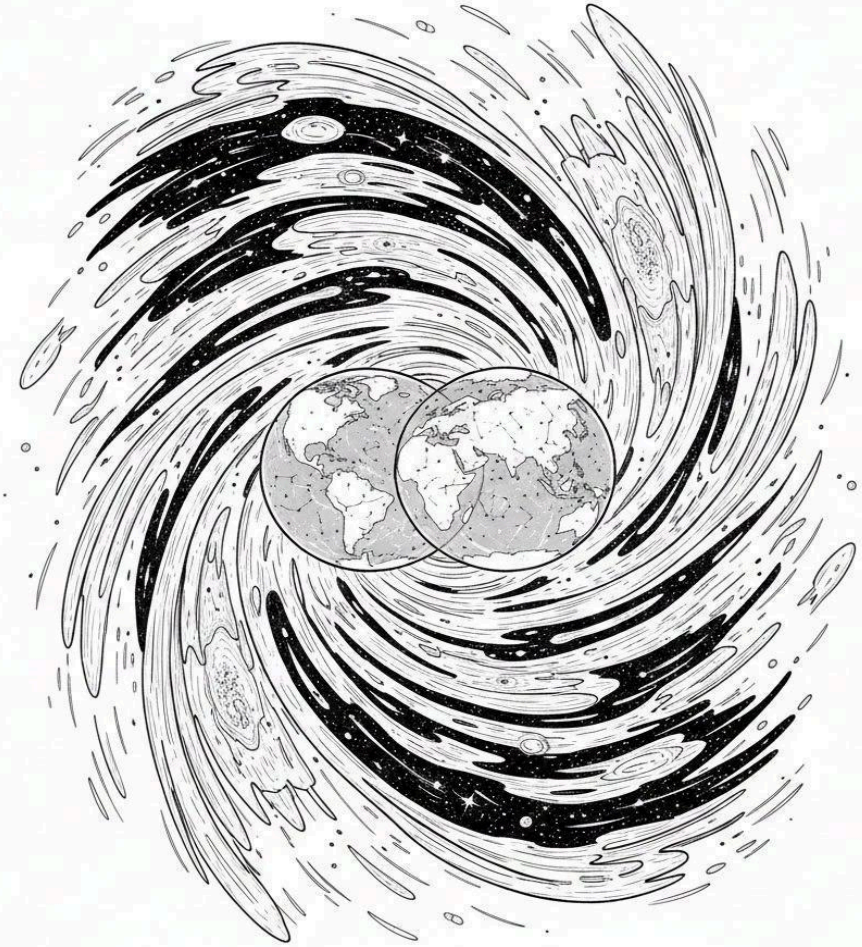
هذه العائلات أثناء ظواهر التصحيح، ليعودوا من جديد بعدها، في البُعد الجديد الذي انتقل إليه الرمادي. يتبعونه في كل بُعد خدمًا أوفياء، بنفس النوايا ونفس الذكريات داخل العائلة، دون أن يمسّهم نسيان أو تنويم. مثل الهرم على القمر الذي استعملته العائلات المتحكمة في الفدرالية. وهذا ما كان يعزز من جبروت هذه العائلات، ويجعلهم يشعرون بالألوهية، وأنهم خالدون لا تمسّهم قيامة، لأنهم يعتقدون أنهم ينجون منها دائمًا.

فنجا يوشيرو من النسيان والموت عبر الطقس وداخل الروبوت، ونجا يعقوب بفضل معرفته بطقوس تلك العائلات النخبوية وبفضل جسده المعدل جينيًّا، حيث صعد مع الفوضى، وكون شبكته الخاصة عبر العصور وبنى مجدًا من تحت الطاولة، لم يُعرف اسمه، ولم تُسجل صورته، لكنه كان يحكم دولًا بالكامل خلف الستار. أما إيتا، فنجت ذاكرتها لسببٍ أكثر غرابة، وانتقلوا جميعًا إلى بُعدٍ موازٍ جديد على نفس الأرض.

رغم النسيان الذي أصاب البشر، إلا أن بعض القبائل التي نجت من الكوارث والطوفان احتفظت بفضل حدس كهانها وحكمائها بما يشبه الحكاية المؤسسة، شذرات من قصة قديمة، تُروى همسًا حول النار، عن كائن ليس بشرًا ولا شيطانًا، يظهر في نهاية

الحضارات، يتلبس شكلًا، يُغري نخبا، ويقودهم إلى تكرار التاريخ، وفي هذه النسخة من هذا البُعد، لم يكن يُعرف بـ"يوردج"، بل أُعطي اسمًا آخر: الدجال. لم تكن إعادة الضبط حدثًا مجهولًا أيضًا، بل كانت نبوءة قديمة تُنتظر، يعرفها الشيوخ ويتوارثها الأجداد، أن العالم يُمحى كل كذا وكذا عام، ويُعاد تشكيله. حتى في سراديب معابد العائلات الحاكمة لهذا البعد، نُقشت جداريات لا تزال تحمل شكله القديم، كائن رمادي بلا ملامح، يمسك بخيوط تتدلى لتصل جماجم.

قرونٌ مرّت ووعي يوشيرو لا ينام. في تواصلٍ دائمٍ مع الرمادي ومع العالم، يراقب، يستقبل، يخزّن. ينقل جسده المعدني من يدٍ إلى أخرى، من قبيلة إلى عشيرة، من مقدس إلى مسروق، من مزار إلى غنيمة، ووعيه مرتبط بالروبوت، حيّ، صامت، صامد. حتى جاء اليوم الذي حمله فيه راهبٌ إلى كهفٍ جبلي، متأثرًا بإشارات رآها في رؤاه. هناك مات بجانبه بعد عقود من الزمان، ثم اجتاح الساحل بعد ذلك فيضانٌ عارم، أطاح بالكهف وسحب الروبوت -جسد يوشيرو- إلى الأعماق، حيث استقر بين الصخور والشعاب المرجانية، غير بعيد عن شواطئ الجزائر في البحر الأبيض المتوسط، في بُعدٍ موازٍ يشبه عالمك الحالي، لكن ليس هو تماما.



2020

استيقظتُ فزعًا، وسقطت بجانب السرير على مخدات وضعتها تحسّبًا لنفس الحلم الذي يراودني كل ليلة، منذ ما يقارب أسبوعين: ركام حجر يعصر ضلوعي، ووجه دامٍ لامرأة شاحبة، أناديها بكريستينا.

أظن أن دماغي يحاول معاقبتي على فشلي في الحفاظ على زواجي. رأسي يؤلمني، كأن أحدهم يعيش بداخله ويجرّ كراسي.

اتجهت نحو نافذة الغرفة، ووضعت جبهتي على زجاجها البارد كما أحب كلما أصابني صداع. لم يحل ما يكفي من الصباح ليوقظ ما يكفي من البشر لإفساد عرس قطط ماجن يدور بين قوارير مزبلة أمام الفندق.

نبرة أحد القطط ذكّرتني بزوجتي السابقة، هيلينا. أكره كم أحببتها.

تذكرت مقولتها المعتادة: "لم يكن لزواجنا مبرر".

ربما كانت تقول ذلك لأنها تظن أنني أوافقها الرأي؟

فأنا كنت أخبرها دائمًا، أثناء نقاشاتنا الطويلة، أن هناك سببًا وجيهًا لانتهاء معظم قصص الحب، بالزواج.

رجعت إلى سريري، وجلست أتأمل في جرح يلتئم على إصبع قدمي، يطل علي من ثقب في الجورب.

- يذكرني بالدين الذي أدفع ثمنه دمًا، كلما تأخرت في سداده.

يُقرَع باب غرفتي.

أسأل:

- من هناك؟

فيجيب صوت رجل يحاول تقليد امرأة بفشل مقصود:

- Room service!

تتبعه همسات ضحك.

أفتح الباب، فتستقبلني لكمة قوية تُسقِطني أرضًا، أكاد أفقد وعيي بسببها.

يجرّني أحدهم ويكبّل يدي إلى رجل السرير، قبل أن يصيح في أذني:

- You never learn, do you? punk

يذكرني بأنني مجرد حثالة لا تستوعب الدرس.

أجيبه مبتسمًا، باصقًا دمًا من فمي:

- هل كنت تتدرّب على قول هذا قبل أن تدخل؟

فيصفعني مستمتعًا بذلك، بينما يقترب آخر، يحمل حاسوبًا محمولًا، فتحه ووضعه على كرسي أمامي كأنه يفعل نفس الروتين منذ عقود.

جون لا يرسل نفس الأشخاص دائمًا، ربما يخشى أن أصادقهم لكثرة تأخري على سداد الديون، فتخفّ ضراوة لكماتهم مع الوقت.

هذا سادس قرض آخذه منه. استعملت معظمه لتغطية نفقات الطلاق، والباقي خسرته على مائدة بوكر... وعلى أريوس.

والآن، علي أن أجلس أمام هذا الحاسوب، كعادتي، وأشاهده يتحدث عن عدد العظام التي ستُكسَر إن تأخرت أسبوعًا آخر.

شغّل الرجل الفيديو، كان جون يجلس على كرسيه الأسود الكبير، خلف طاولة طعام، ويرتدي قميصًا شاطئيًا خفيفًا. يحرص دائمًا على تقليد أبطاله من مافيا السينما التجارية.

لم يتحدث إلا بعد انتهائه من الأكل، ثم شرع في غسل يديه داخل طاس مغربي فضي، وقال بالإنجليزية ما ترجمته:

- عربي... عميلي المفضل، أفترض أنك تشاهد هذا بينما يؤلمك مكان ما في جسدك، اعذرنا على ذلك، هي تقاليد علينا الحفاظ عليها في مهنتنا... اسمع، صديقي، بما أنك تحب المرح كثيرًا، إليك ما سيحدث: من الآن فصاعدًا، سأضيف صفرًا في آخر الرقم الذي تدين لي به، في كل أسبوع تتأخر فيه، وعندما يصل المجموع إلى خمسة أرقام، في حدود ما أعلم أنه لا يمكنك توفيره، سأضطر حينها إلى حصاد وبيع أعضاء زوجتك السابقة الداخلية.

ثم جفف يديه وأكمل بلامبالاة:

- أعلم أنك ما زلت تحبها.

ثم انتهى الاتصال وأغلق الرجل الحاسوب، فكّ الآخر يدي، دسّ ولاعتي في جيبه وخرج وراء البقية. وبقيت جالسًا بجانب السرير أحدّق في النافذة، أحسّ بدوّامة من اليأس والغضب والندم تملأ بطني، أستفرغها فورًا داخل قيء.

من أين سآتي بخمسين ألف دولار؟ لا أملك حتى ثمن الحافلة التي يجب أن تأخذني اليوم إلى موقع الحفر. لم أتخيّل أن جون ذكيّ كفاية ليكتشف وسيلة ابتزاز أخرى... غير الضرب.

ذهبتُ إلى الحمّام، جلبت منشفة مبلّلة، مسحت بها بعض القيء عن أرضية الغرفة ورميتها في سلّة المهملات. نظرت إلى ساعة الحائط: السادسة صباحًا، ثم نزلت إلى مطعم الفندق والتهمت فطوري بسرعة. لم يكن ليتطلّب وقتًا: كأس شاي كبير، ورغيف مدهون بالجبن يسمّونه هنا في المغرب "المسمن" - اسم يوحي بالسُمنة أكثر مما يوحي بضرورة دهنه بالسمن.

ما إن خرجتُ إلى الشارع حتى وقف "أريوس" بسيارته أمامي، يبدو مسرورًا على غير طبيعته.

- كيف حالك؟

سألني بلكنته الأمازيغية المنقوعة في عربية فصحى، اصطنعها خصيصًا لأفهمه. أنا لا أفهم الدارجة المغربية، لكنني أتكلم العربية الفصحى بطلاقة، ويعجبني أن هذا يشجع كل من أتحدث إليه هنا على استعمالها، رغم أنني أستشعر في معظم محاولاتهم ميلًا إلى تقليد شخصيات من أفلام تاريخية... أو كرتونية.

- صباح الخير.

أجبته بينما أدخل السيارة لتنطلق مباشرة نحو موقع الحفر، غير بعيد عن مدينة مراكش.

أريوس مساعدي الشخصي. التقيته أثناء شهر العسل هنا في مراكش. أدهشتني معرفته الأنثروبولوجية الواسعة، واستطاع بطريقة ما أن يقنعني بأنه يعرف موقع حفريات أثرية ثمينة، وعظيمة، من شأنها أن تعيد ترتيب أوراق تأريخ الوضع البشري على الأرض - هكذا أذكر وصفه أول مرة تحدّثنا في الأمر.

عادةً، لست من النوع الذي يشتري الزرابي الباهظة الثمن المزيّفة من جامع الفنا على أساس أن هرمس كان يصلّي عليها. لكنني حتمًا من النوع الذي يأبه كثيرًا لترتيب أوراق الوضع البشري، ومهما كانت هذه الحفريات التي يتحدّث عنها أريوس، فهي حتمًا ستساوي ملايين الدولارات، وبعد تهديد جون، هذا كل ما يهمني حاليًا.

يبدو أريوس أكثر أهلًا للثقة من أن يبيعني وهم أمل تاريخ، لذلك وضعت ما تبقّى لي من سُلف جون بين يديه، راهنت عليه حتى وأنا لا أعرف اسمه الحقيقي.

آمل أن نجد شيئًا ثمينًا اليوم، مثل ما وجدنا في أول أسبوع.

لا أستطيع تخيّل ما قد يحصل لهيلينا إذا لم أسدّد الدين.

وصلنا إلى موقع الحفر، فوجدناه مكتظًا بالسلطات الأمنية. أدار أريوس مقود السيارة مبتعدًا عن المكان، بينما نرمقهم بحسرة واستهجان.

هذا ثاني موقع يهتم به أريوس يُكتشف من طرف أمن الدولة. يضرب أريوس مقود السيارة بغضب شديد، يلعن بلغته الأمازيغية. أردت أن أسأله كيف اكتشفت السلطات مكاننا بهذه السرعة، لكني ترددت، فأدركت أن آخر شيء قد يريده وهو في هذه الحالة هو التحدث معي بالفصحى، فصمت طوال الطريق. حتمًا سنجد موقعًا آخر، بل يجب أن نجد موقعًا آخر.

أوقف السيارة وخرجنا لاستنشاق سيجارة. قلت له:

- أريوس! لدي فكرة.

سألني بعد أن أخرج ولاعة من جيبه:

- ما هي؟

أجبت:

- يبدو لي أن أحد العاملين في الحفر الدائمين ربما يسرب الأخبار للسلطات. هل نغيرهم كلهم، أم نحفر بأيدينا أنا وأنت المرة القادمة؟ ما رأيك؟

ابتسم أريوس كأنّه كان يفكر في نفس الأمر من قبل:

- فكرة متعبة، لكنها جيدة. لا ثقة في عتيقة.

وسرعان ما ارتسمت على وجهه نظرة مريبة، كأنه تذكّر شيئًا، ثم قال مقاطعا رغبتي في سؤاله ماذا قصد بعتيقة:

- عربي، هناك شيء عليك معرفته. اكتشفته البارحة وتأكدت منه اليوم.

رمى ما تبقى من سيجارته وأكمل:

- نحن حاليًا مراقبون من طرف استخبارات الدولة. علينا الاختفاء لبعض الوقت حتى يصل عيد الأضحى. حينها سيخف الضغط، ثم نواصل. كما قلت، فقط أنا وأنت. سأجمع المعدات، لا تهتم، فقط اختبئ لبعض الوقت إلى أن أكلمك.

سحبت بعض الدخان من سيجارتي، أفكر: ربما هذه خدعة. ربما يظن أنني أعتبر تضييع أموالي جزءًا من مغامرتي في المغرب. لا أستطيع حتى التبليغ عنه، أو ربما هو على حق... اللعنة، ليس لدي وقت للتفكير الآن.

فجأة دق هاتفي، هيلينا، تصيح في أذني. عرفت أن رجال جون يلاحقونها من جديد، ثم قطعت الاتصال قبل أن أتمكن من الرد.

اتصل بي رقم آخر مباشرة بعدها، هذه المرة كان "أمير".

- السلام عليكم يا عربي.

رددت:

- أميييير، كيف حالك؟

يجيب:

- أحمل لك أخبارًا أهم من حالي يا عربي. سنلعب مجددًا. ألم يتصل بك أحد؟

أجبته متعجبًا:

- لا، عمَّ تتحدث؟

أجاب:

- مباراة حبية ترفيهية في حفلة ينظمها أحد أغنياء سياح الجزائر.

- مجانًا؟

قهقه وقال:

- لا، بخمسين ألف دولار لكل واحد.

لم أصدق الأمر، فسألته إن كان يمزح، فأخبرني أن أنتظر مكالمة على هاتفي قريبًا، ثم قطع الاتصال.

زدت من شدة رنين الهاتف وشغلت خاصية الاهتزاز من فرط حماسي. لا أطيق تضييع هذه الفرصة المعجزة.

وافقت على اقتراح أريوس دون تفكير، وركبنا السيارة. طلبت منه أن يعيدني إلى فندقي لأجلس أمام هاتفي بفارغ الصبر وأنتظر الاتصال.

وصلنا إلى الفندق، ودعته بسرعة، وهرعت نحو غرفتي غير مكترثٍ بنداء أحد النادلين في المطعم لي. وما إن فتحت باب الغرفة حتى رن الهاتف. انتهت المكالمة بعد عشر دقائق، وكان صراخ غبطتي يسمع في أرجاء الفندق. أخذت ورقة وقلمًا من خزانة صغيرة بجانب سريري لأحسب كم سيصبح الدين بعد أسبوعين. اليوم: الإثنين، الدين خمسون ألف دولار، الاثنين القادم خمسمائة ألف دولار، الثلاثاء القادم المباراة، أحصل على الخمسين ألف، ثم الاثنين الذي يليه يصل دين جون خمسة ملايين دولار؟!

لا بد أن جون فقد عقله. كيف له أن يضعني في هذا الموقف المجنون؟ ربما يظن أنني أمتلك المال وأتأخر لأنني أتلذذ بالضرب. لا، هو حتمًا يمزح، هذا تهديد غبي ولن يستطيع فعله. لكن ماذا لو فعل؟ لا أستطيع المخاطرة. لدي ثلاثة أسابيع ابتداءً من الأسبوع المقبل، قبل أن يصل المبلغ إلى خمسين مليون دولار ويحدث مكروهٌ لهيلينا بسببي. يكفيها كل الألم الذي سببناه لبعضنا طوال عشر سنوات الزواج.

عليّ أن أفعل شيئًا، لا أعرف ماذا. سأحصل على خمسين ألفًا بعد هذه الحفلة أولًا، ثم أرى ما العمل، قد ألعب بعض البوكر، أو أحاول إقناع جون بالعدول عن عقابه المبالغ فيه. وإذا لم يفلح

شيء، اللعنة، سأضطر إلى تبليغ الشرطة، أو حتى قتله، حتى لو كلفني هذا حياتي. غدًا موعد السفر إلى الجزائر. حجزت تذكرتي، وأعددت متاعي، واستلقيت على سريري ونمت. ليوقظني صوت حركةٍ ما داخل الغرفة. ظننته جرذًا في البداية، لكن عندما استفقت جيدًا، بدا لي شيئًا رماديًا غريبًا يتحرك كالزئبق على الأرض، ثم اتجه نحو النافذة المفتوحة وقفز.

تبعته أبحث في الأسفل، لأنتبه فجأة إلى بضعة عناصر من الشرطة متجهين نحو الفندق. أسدلت ستار النافذة أراقبهم من الجانب.

التقوا بحارس الفندق، "ما هذا؟ يشير بأصابعه نحو غرفتي؟؟"

تذكرت فورًا كلام أريوس عن مراقبة الاستخبارات لنا.

"لا، لا، لا! توقيت سيء، توقيت سيء!"

لبست حذائي ومعطفي بسرعة، ووضعت حقيبتي خلف ظهري، ثم هرولت متجهًا نحو سطح الفندق. أقفز إلى مبنى مجاور مهجور، ثم أتسلق عمودًا إلى الأسفل وأهرب مبتعدًا عن الشارع.

أخذت تاكسي، كانت الساعة الثامنة صباحًا، وما زالت نصف ساعة على رحلتي. آمل ألا تسبقني صورتي إلى المطار. بعثت برسالة نصية إلى أريوس لأحذره، لكنه لم يُجب!

مرّت خمس ساعات، وأنا جالس على أحد الكراسي غير المريحة داخل مطار بوفاريك. لا تبدو الجزائر مختلفة كثيرًا عن المغرب. كنت أنتظر وصول أمير.

التقيت بأمير لأول مرة في نهائيات فرنسا لتنس الريشة سنة 2016. كان خصمًا جديرًا بالفوز. زرته بعدها في مناسبات، وزارني هو أيضًا في المغرب. يعمل في بلدية مدينة ما تُدعى "عين أحمر" أو "أحمر العين" أو شيء من هذا القبيل. يمارس عدم انتمائه لنمط جيرانه بطريقة فريدة، ويعيش وحيدًا مع كلبه في منزل صغير على أطراف المدينة. يحرص دائمًا على إرسال صور له، إلى جانب صور مما يجده أثناء الغطس قرب شواطئ تيبازة.

خرجت من المطار لأجده ينتظرني قرب الباب. كان سعيدًا برؤيتي سعادةً جعلتني أرتاب، خصوصا أنه شحيح في الكلام ولا يحب المحادثات العابرة.

سألني فقط إن كنت مستعدًا للمباراة، ثم أخذني إلى سيارته المركونة بجانب الطريق.

- متى ستُغير هذه الخردة؟

سألته بعد أن جلست.

- أبدًا.

أجاب ثم أدار المحرك وانطلق. وفي الطريق، أشار إلى ثقب في جانب النافذة وقال:

- شفت هذا؟ من هنا يطلعلي المورال كي ندي هاذي الخردة فتحويسة.

ضحكت من لهجته، ثم طلبت منه أن يعيد ما قاله بالعربية، فتذكّر سبب دعوة الكل لي ب"عربي". أنني أجنبي لا يفهم الدارجة، وأعاد محافظًا على نفس النبرة:

- أترى هذا الثقب؟ من هنا تدخل سعادتي عندما آخذ هذه الخردة في جولة على طريق الكورنيش.

ثم سأل:

- ما أخبار المغرب؟ هل وجدت مصباح علاء الدين؟...

لم أجبه لأنه بدا كأنه سيقول المزيد:

- آه، تذكّرت. أظن أنني وجدت شيئًا قد يثير اهتمامك. سأريك إياه عندما نصل إلى المنزل.
- حسنًا... قل لي إذن، متى المباراة بالضبط؟
- الثلاثاء القادم، الساعة الثالثة مساءً. لا تقلق، سأوصلك بنفسي. لكن... ألا يبدو لك الأمر غريبًا؟
- ماذا تعني؟
- أعني الدعوة، لنا نحن بالضبط، والخمسين ألف دولار مقابل مباراة تنس ريشة.
- لا، ليس غريبًا كثيرًا، كنت لتشتري أشياء كهذه أنت أيضًا، لو كنت قادرًا على توفير كل شيء آخر تحتاجه.

ضحك أمير وقال:

- معك حق، لو كنت ثريًا إلى تلك الدرجة، لدعوت مريام فارس إلى عيد ميلادي فقط لتنفخ شمعة كعكتي ثم ترحل... لكن الأمر مختلف هنا، فعلى ما سمعت، هذا الثري حلم بنا نلعب أمامه.

أجبته:

- هممم، خمسون ألف دولار ثمن مناسب مقابل تحقيق حلمه إذن.

وصلنا إلى منزل أمير، يشبه المنازل الكلاسيكية الكندية، ومن الواضح أنه لا ينتمي إلى العمران المحيط به.

حلّ الليل بسرعة، وأحسست بإعياء استسلمت له بنوم هادئ على أريكة في صالة المنزل.

وصل يوم الثلاثاء. ذهبنا إلى المباراة. أنهيت الحفل بسرعة، أخذت الخمسين ألف دولار، وعدت مع أمير إلى منزله استعدادًا لأخذ أول طائرة إلى كندا صباحًا.

ما زلت لا أعرف كيف سأحوّل خمسين ألف دولار إلى خمسمئة ألف، لكنني حتمًا لن أظل أنتظر حتى تصبح خمسة ملايين.

في تلك الليلة، بينما كنت جالسًا على كرسي في المطبخ آكل طبقًا جزائريًا أعدّه أمير، دخل حاملًا بين يديه ملفًا بلاستيكيًا شفافًا.

أنهيت أكلي بسرعة، ثم جلس بجانبي وأخرج الملف من الكيس.

سألته:

- ما هذا يا أمير؟

أجاب:

- هذا أول شيء أردت أن أريك إياه.

فتح الملف وناوله لي.

الورقة الأولى كانت مكتوبة بالإنجليزية، وقد شدني العنوان المطبوع في الأعلى: "K58 Records".

رفعت عيني إليه وسألته بنبرة أكثر جدية:

- ما هذا؟ وأين وجدته؟

قال:

- وجدته في غرفة صديق لي. أظنها وثائق سرّية حصل عليها من الإنترنت ثم طبعها.
- وأين صديقك الآن؟
- انتحر.

توقفت لوهلة أتأمل وجه أمير، الخالي تمامًا من أي علامات المزاح المعتادة منه، أطرقت رأسي وبدأت أقرأ الأوراق بتمعّن وحين انتهيت، سألته:

- هل تعرف ما الذي تعنيه هذه الوثائق بالضبط؟

نهض وتوجه نحو صنبور الماء، ملأ كأسًا وشربه دفعة واحدة، ثم عاد إلى مكانه وقال:

- الملف يحتوي على معلومات حول مركبة فضائية من نوعٍ ما... مدفونة داخل جبل في صحراء الجزائر.

لم تكن هذه الحكايات غريبة عني كثيرًا. لطالما تابعت ما يكفي من صفحات المؤامرات السرية على الإنترنت، ما يجعلني أظن أن هذا الملف مجرد فبركة أنجزها أدمن صفحة في زاوية مظلمة من موقع ما.

صمتُّ للحظة، أعيد قراءة بعض الفقرات، ثم سألت أمير:

- هل كان صديقك هذا تحت أي ضغط نفسي؟

أجاب:

- بعث لي رسالة في اليوم نفسه الذي توفي فيه، قال فيها إنه يشعر بأنه مراقَب.
- لا أعرف يا أمير... مركبة فضائية؟ يبدو الأمر مستبعدًا جدًا.

سكتُّ قليلًا أنظر في عينيه الشاخصتين، ثم أردفت:

- هل تؤمن حقًا أن مركبة فضائية مدفونة في صحراء الجزائر، وأن صديقك قُتل بسبب اكتشافه لهذا الأمر؟

نظر إليّ لثوانٍ، ثم قفز فجأة من مكانه وخرج من المطبخ، ليعود بعد لحظات وهو يجر صندوقًا كبيرًا. فتحه أمامي، فظهر ما بدا لي في البداية قطعة بلاستيكية ضخمة. اقتربت أكثر، فتبيّن أنه... روبوت.

روبوت حقيقي، ليس من البلاستيك كما ظننت في الوهلة الأولى.

رفعت بصري نحو أمير وسألته:

- هل وجدت هذا عند صديقك أيضًا؟

يجيب:

- لا، وجدته الشهر الفائت أثناء الغطس.

وقفت مذهولًا أتلمس معدنه:

- هل يتحرك؟ هل له مقبس كهربائي أو موضع لبطارية؟
- لا أعرف.

قال وهو يخرجه من الصندوق بعناية.

ثم أردف مبتسمًا:

- ربما سقط من باخرة صينية؟ أو يابانية؟

أجيبه ساخرا وأنا أتفقد أطرافه الثقيلة:

- ربما، أو ربما خرج من المركبة الفضائية وهرب ليختبئ في البحر.

قلت ذلك وأنا أبتسم ابتسامة ساخرة تُخفي قلقي الحقيقي من غرابة الأحداث التي توالت علي فجأة دون سابق إنذار.

ثم جلسنا معًا، نتأمله في صمت.

أخبرني أمير كيف عثر عليه.

قال إنه كان قد أنهى غطسته وكان يجمع حاجياته على الشاطئ، حين لمح سمكة رمادية ضخمة، غريبة الشكل، تتحرك ببطء قرب الجرف الصخري. تبعها بعينيه حتى اختفت في منحدر ضيق، فارتدى بذلة الغطس من جديد، تبعها، ليكتشف مغارة صغيرة هناك... وفي داخلها، وجد الروبوت.

وبينما يقترب من إنهاء القصة، رن هاتفي.

رسالة.

فتحتها، فإذا بصورة لهيلينا، تشتري شيئًا ما داخل سوق مكتظ.

رجال جون، يبعثون تذكيرًا بالدَّين. أقفلت الهاتف فورًا، محاولًا كبحَ دوامة الأفكار.

اقتربت من الروبوت، لمسته برفق. بدا مصنوعًا بدقة مذهلة، لم أرَ مثلها حتى في أفلام الخيال العلمي. اجتاحني شعور غريب وأنا أقف قربه... كأنني أواجه جثة إنسان حي.

للحظة، راودتني فكرة لم أستطع طردها: تكنولوجيا غريبة كهذه... حتمًا تساوي ثمنًا كبيرًا، ربما يكفي لسداد ديني كله.

أو ربما... أمنحه إياه عربون مودة لجون. سيُعجَب به، سيتباهى به أمام أصدقائه.

ما عليّ سوى إقناع أمير بأن يتركه لي.

نظرت إليه وسألته:

- ما رأيك أن آخذه معي إلى كندا؟ أعرف مختصين في الجامعة هناك... يمكنهم دراسته.

لكن أمير لم يجبني.

بدلًا من ذلك، مدّ يده بصمت نحو ملف الوثائق على طاولة المطبخ، أعاده إلى الكيس، ثم وضعه داخل الصندوق. تبعه الروبوت، ثم أغلق الغطاء، وجرّ الصندوق إلى خارج المطبخ، حيث خبّأه.

تلك الليلة، لم أستطع النوم.

كلّما أغمضتُ عينيّ، رأيت هيلينا... فوق سرير إسمنتي بارد، تُقطّع إلى أشلاء.

نهضت لأشرب شيئًا، فوجدت أمير يغط في نوم عميق في طرف الصالة، وبجانبه قنينة كحول فارغة.

عدت إلى فراشي.

"ما الذي سأفعله؟ ... لم يعد لديّ خيار... عليّ أن أحصل على ذلك الروبوت... بأي ثمن... سأسرقه... نوم أمير ثقيل، وهو أبعد ما يكون عن التفكير في تقديم بلاغ عن سرقة روبوت وجده تحت البحر. لا أظن أن مركز شرطة "أحمر العين" سيتعامل بجدية مع قصة كهذه أصلًا... لكنني لا أستطيع الطيران به" "قد أرسله من هنا إلى منزلي في كندا؟". "ماذا لو لم يصل؟" "اللعنة." "سأبيعه هنا... آه... أعرف شخصًا...".

البداية

تسللتُ حافي القدمين داخل المنزل، غرفة تلو الأخرى، حتى وجدت الصندوق تحت سرير غرفة نومه.

حملته بصعوبة إلى الخارج، ووضعته في صندوق سيارة أمير، ثم عدتُ أركض على أطراف أصابعي إلى غرفتي، جمعت حاجياتي، ارتديت حذائي ومعطفي، وأخذت مفاتيح السيارة من جيب سرواله الملقى بجانبه وخرجت.

كانت الساعة الرابعة صباحًا.

استخدمت نظام التموضع في هاتفي للوصول إلى بلدية سيدي راشد، حيث ينتظرني أحد أصدقاء أريوس.

اتصلت به، فأخبرني أن هناك منظمة سرية تهتم بشراء "الأشياء الغامضة"، وهم وحدهم قادرون على دفع الثمن الذي سيُرضيني.

قال إنه يستطيع بيع الروبوت نيابة عني مقابل عمولة.

لم أكن أظن أن الروبوت سيُدفع لقاءه عشرة ملايين دولار.

المبلغ حُوّل مباشرة إلى حسابي البنكي في كندا.

لم أصدق كيف حدث كل شيء بتلك السهولة... وبتلك السرعة المريبة.

بل إن كل الأحداث، منذ لحظة هروبي من المغرب، مرّت كأنها دقائق، أيام تتسابق بلا توقف، لم أفق من تلك العجلة الزمنية إلا بعد سداد ديني.

"الأمر حدث!!!" ... "لا أصدق!!"

اتصلت بالبنك في كندا، تأكدت: تسعة ملايين دولار في حسابي.

لم أسدّد ديني فقط... بل أصبحتُ ثريًا، بين ليلة وضحاها.

لكن ما بقي في داخلي من ضمير، لم يسمح لي بأن أنفقها قبل أن أعطي أمير حقه، فاتصلت به، ظننت أن عرضًا كهذا سيسعده - ثلاثة ملايين دولار، لكنه أقفل الخط دون أن يرد، ربما هو مستاء من سرقة السيارة أكثر من الروبوت.

مرت عدة أيام، لم أغادر الجزائر بعد، أخطط لإعادة السيارة إلى أمير، وإرغامه على أن يصبح فاحش الثراء. فكرت أن أنتظر عيد ميلاده، ثم أحاول استدعاء مريم فارس، وأحقق له الحلم الذي أخبرني به ذات يوم. حتمًا... سيتجاوز كل ما حدث ويسامحني عندها.

في إحدى ليالي وهران الماطرة، غادرت الفندق مدفوعًا بالضجر. قصدت ملهى ليليًا أوصاني به أحد موظفي الاستقبال، عازمًا على العودة متأبطًا فتاة عربية من النوع الذي أفضّله.

عند وصولي، بدا المكان مختلفًا. ليس صاخبًا كما توقعت، بل أقرب إلى مسرح إيروتيكي هادئ، أشبه بعروض الكباريه الراقية في أوروبا. جلست عند طاولة قريبة من الخشبة، حيث فتاة تقرفص وسط الضوء، ترتدي قناعًا أسود بأذني أرنب، وزيًا ضيقًا من اللاتكس يشد تفاصيل جسدها بإغراء مدروس.

جاء النادل بكأسي، وبدأ العرض. رقص تعبيري على أنغام باروكية كلاسيكية لا تليق بالملاهي الليلية كما عهدتها، لكن الجو راق لي. ارتشفت جرعة من الكأس، أراقب حركة أطرافها التي تحكي شيئًا. قصة ربما، وإن كانت مغموسة بالإثارة.

جسدها يقول كثيرًا، لكني لم أستطع فهم القصة. ولا أظن أن أحدًا يهتم. فماذا يمكن أن تروي فتاة ترقص هذا الرقص؟ أزمة أب؟ مراهقة مضطربة؟ ربما، لكنها لا تبدو حزينة. على العكس، تبدو سعيدة وجميلة. بل من ذلك النوع من الجمال الذي لا يزول حتى لو سُلِخ الجلد عن عظمه... كيف لم ألاحظ ذلك منذ البداية؟

نظرت حولي لأتأكد من أنني لست الوحيد الذي يرى ما أرى. ثم عادت نظراتي إليها. الموسيقى انتهت، لكنها استمرت ترقص على ضحكات الحضور. تنظر إليهم واحدًا تلو الآخر، ثم تتوقف عندي. أحدّق في عينيها من دون أن أبتسم، فقط أتابعها وهي تقترب نحوي، تخرج وشاحًا من بين صدرها وترميه نحوي، فيقع على رأسي، وتغادر المسرح مسرعة وسط تصفيق وصفير وحتى ضحك الحاضرين. قد يُظن أن التصفيق لها. لكنه كان في الواقع للراقصة الشعبية التي تبعتها فورا.

وضعتُ الوشاح في جيب معطفي وجلستُ لأنهي شرابي. لم تمضِ لحظات حتى لمحتُها تخرج مسرعة من الباب الخلفي. نهضتُ على الفور ألاحقها. كانت ترتدي جلبابًا أزرق وحذاء "كونفرس" زهري اللون.

شعرتُ كأنني أتبع عالمًا غامضًا لا يشبه ما أعرفه، عالمًا أريد اكتشافه مهما كلّفني الأمر. ناديت عليها: "Hey!"

توقفت واستدارت نحوي. ارتسمت على شفتيها ابتسامة جمّدت أنفاسي لثانية. وفي اللحظة التي بدأت أقترب فيها منها، توقفت سيارة مسرعة خلفها، ونزل منها رجل ضخم. أدركت هي اقترابه، فهمّت بالهرب، لكنه أمسك بها في لمح البصر.

اندفعت نحوه لأمنعه من جرّها، لكن رجلًا آخر لا يقل ضخامة دفعني أنا وهي إلى داخل السيارة، وأغلق الأبواب. انطلقت السيارة بسرعة، ولم تتوقف إلا بعد دقائق أمام بوابة قصر.

- Bonjour Monsieur, Mademoiselle

قالت سيدة تقف أمام البوابة، بأدب شديد.

كانت ترتدي زيًّا يشبه زي خدم. اقتربت من باب السيارة، بينما نظرات الدهشة لا تزال مرسومة على وجهي.

نزلت الراقصة أولًا، ولحقتُ بها وأنا أتمتم:

- أين نحن؟ ومن أنتِ؟

أجابت السيدة بلغة عربية ممزوجة بلكنة فرنسية واضحة:

- نعتذر عن الطريقة الفظة التي جئنا بكما بها، لكن الوقت كان ضيقًا، والخيارات محدودة. تفضّلا إلى الداخل، سيُشرح لكما كل شيء لاحقًا.

ثم أمسكت بيد الراقصة وتقدّمت بها نحو القصر. نظرتُ خلفي لأرى السيارة تنصرف، ثم تابعتُ السير خلفهما.

كان القصر مهيباً بكل معنى الكلمة. على جانبي الطريق المرصوفة المؤدية إلى الباب، انتصبت مصابيح قديمة توزعت بأناقة لافتة، تُضيء الحدائق الغنّاء وتطلق عبيرًا جعلني أشعر كأني في أجمل مكان على وجه الأرض.

فُتحت البوابة ما إن اقتربنا. غريب كيف يبدد الجمال كل إحساس بالخطر. جمال القصر هذا بدا امتدادًا طبيعيًّا لجمال الراقصة التي كانت تحدّق في المكان بعينين تسرحان في جنباته.

دخلنا إلى غرفة فسيحة، وعلى الحائط الأيمن علّقت شاشة ضخمة، بجانبها ما بدا لوحة تحكم إلكترونية. اقتربتُ منها متأملًا.

قالت السيدة بنبرة رسمية قبل أن تغادر وتقفل الباب خلفها:

- تحت أمرك، سيدي.

"سيدي؟ لمن قالت ذلك؟ لا أحد في الغرفة سواي والراقصة"

بقينا نحدّق في بعضنا لحظات، حتى سألتها:

- ما اسمك؟

نظرت إلي باستغراب. أدركت أن ملامحي الغربية لا تنسجم مع فصاحتي. فبادرت بالتوضيح:

- أنا كندي من أصول مغربية، لكن لا أجيد سوى الفصحى، ما اسمك؟

ابتسمت مستغربة وأجابت:

- إيمان، لكن يمكنك مناداتي بكريستينا.
- كريستينا؟ ولماذا هذا الاسم؟

كادت أن تُجيب، لولا أن قاطعنا سعال خفيف، مُفتعل، قادم من خلف كرسي المكتب. بدا صاحبه يريد لفت انتباهنا إلى وجوده.

استدار الكرسي ببطء، ليظهر فتى يجلس عليه. قال فجأة بنبرة هزلية كأنه يحاول إخافتنا:

- ضاااا... ضاااا...

ثم نظر إلينا وأردف مبتسمًا:

- معذرة، عادة قديمة.

يبدو في السادسة أو السابعة عشرة من عمره، يرتدي بذلة سوداء أنيقة، يرمقنا بابتسامة ساخرة قبل أن يقول:

- لا يتوقف "إكس" عن إثارة إعجابي.

لم أفهم قصده... إكس؟

ثم نزل عن كرسيه، بدا أطول مما بدا عليه وهو جالس. وسيم، شعره منسق بعناية، عيناه صغيرتان توحيان بالذكاء والحذر. اقترب مني، فسألته:

- من أنت؟ وماذا نفعل هنا؟

أنصت وأجاب بهدوء:

- أنا يعقوب، من دفع لك عشرة ملايين دولار مقابل الروبوت الذي عثرت عليه.

رفعت حاجبيّ دهشة:

- لا تقل إنك تريد استرجاع مالك... لقد أنفقته كله.

ضحك وهو يفتح خزانة بالقرب من مكتبه، أخرج منها الصندوق وجرّه كأنه لا يزن شيئًا. لم أذكر أن وزنه كان بهذه الخفة، ثم فتحه وقال:

- لن تصدقوا ما سأقوله... لكن أتدرون أين صُنع هذا الروبوت؟

لم ينتظر جوابنا. اقترب من كريستينا، ثم نظر إليّ وقال ببطء:

- في بُعد آخر.

دخلت في تلك اللحظة السيدة التي رافقتنا من البوابة، بينما أحاول حساب المسافة بيني وبين الباب الذي دخلت منه للتو لأهرب من هذا الفتى الغريب الذي ربما يريد استرجاع ماله، تحمل صينية عليها كوبان فيهما ما بدا أنه عصير ليمون. قدمت كأسًا لكريستينا وآخر لي. شربت كريستينا أولًا بسرعة، بدت عطشى وساذجة.

أما أنا فانتظرت، أراقب وجه الفتى، أترصده لعله يُظهر علامة تحذير، لكنه كان مستغرقًا في تأمل الروبوت، والعصير بين يديه يبدو شهيًا. فسألته ممازحًا:

- هل وضعت ما يكفي من السم في داخله لأموت دون ألم؟

نظر إلي مبتسمًا ولم يجب، فشعرت ببعض الجبن أمام كريستينا التي كانت تنظر نحوي.

شممت رائحة الشراب المغرية، ثم شربته.

طعمه بد مرًا يشبه القهوة، ثم مالحًا، قبل أن يختتم رحلة تذوقه بحلاوة غريبة، خليط من عصير العنب ورماد السجائر...

ذكرني هذا المذاق بشراب قُدّم لي يومًا في أحد منتجعات البيرو.

فسألته:

- أهذا شراب أياهواسكا؟

ابتسم، ثم أجاب:

- لا، اسمه 'مي هون تانغ'... ولا يُفعل مفعوله سوى مرة واح...

ثم بدأ صوته يغرق في همهمة مكتومة، كأنه يتحدث من تحت الماء، بينما شعرت بدوار شديد، وسقطت أرضًا. كان آخر ما رأيته هو كريستينا تنهار بدورها.

سافرت بعدها إلى عالم عجيب، من الرموز والأشكال والموسيقى التي لم أسمع مثلها من قبل. أحسست أنني أحلم، لكنني كنت متأكدًا أنني لا أحلم. رأيت نفسي في مئات الأماكن والهيئات: جنديًا في حرب، أجري في حقل، أسبح في نهر، أصلي في كنيسة، أساوم في سوق، أنجب طفلًا، أكون طفلًا...

وفجأة، يدٌ على رأسي، وصوت يهمس في أذني:

- سيباستيان... سيباستيان...

فتحت عيني، لأجد نفسي تحت الحطام. ماذا تفعل الراقصة هنا؟... لا، كريستينا؟ كريستينا أخرى، في حياة أخرى. تشبهها تمامًا.

أنظر إليها، رأسها ينزف، وتحاول نزع قطعة حديد من بطنها. أصيح:

"كريستينا! كريستينا! كريستينا!"

نشيد الكابوس نفسه الذي كان يراودني في المغرب...

ثم أُلقى في ما حدث قبل الحطام: مركبة، جنازة، عملاق، يوشيرو، يوسف، الفدرالية، الميتم، عائلتي، طفولتي... أتذكّر!

أتذكّر كل شيء من تلك الحياة، كأن ذاكرتي كانت ملفًا مغلقًا وفُتح فجأة دفعة واحدة. أشعر بكل تفصيلة، كأنني أعيشها الآن. ليست خيالًا. عشتها.

"من أنا؟"

ثم استيقظت.

وقفت متمايلًا بمساعدة الخادمة، أرى يعقوب يضع يده على رأس كريستينا ويهمس في أذنها.

أحاول أن أتماسك، لكن ذكرياتي كـ"سيباستيان" بدأت تتبخر. أتمسك بها، أستدعيها، أحاول خلق ذكريات جديدة منها قبل أن تختفي.

استيقظت كريستينا. تنظر إلى يديها كأنها وُلدت للتو.

نظر إلينا يعقوب وقال:

- ليس لدينا وقت، حاولوا التركيز على الذكريات المتعلقة بيوشيرو.

اقتربت كريستينا وعانقتني فجأة، بقوة. مشاعر غريبة، جارفة، تغمرني.

لا يبدو أن ذلك المشروب يوقظ الذكريات فحسب، بل يستدعي، ولو مؤقتًا، أحد الشخصيات التي عشناها ربما سابقًا في زمن ما لتعيش معنا من جديد، جنبًا إلى جنب.

"ما الذي وضعه لنا ذلك الفتى في الشراب؟" "هل كانت مجرد هلوسات؟" "لكن... كل شيء بدا حقيقيًا جدًا"

اقترب الفتى من الطاولة وجلس بهدوء. نظر إلينا بصمت، كأنه ينتظر سؤالًا يعرفه مسبقًا.

سألته بصوت مبحوح:

- لماذا؟ لماذا كل هذا؟ من أنت؟

تقدّمت كريستينا نحوه، يداها ترتجفان، وعيناها تلمعان بدموع ممزوجة بالذهول والخوف:

- هذه الذكريات... أهي حقيقية؟ أهي... لي؟

أدار وجهه نحوها، ونظر إليها طويلًا، نظرة عميقة، ثم أومأ برأسه:

- نعم.

ثم وجّه نظره إليّ وقال:

- ما رأيتموه ليس وهمًا، ولا حياة سابقة... هي حياة حقيقية، ضاعت في عالم موازٍ، عالم أعيد ضبطه. كل من عاش هناك... نُسي...

تبادلت النظرات مع كريستينا، أبحث عن أي تفسير منطقي وسط ما نمرّ به، لكنّه قطع شرودي حين اقترب خطوة وأكمل:

- أعلم أنكما لا تفهمان أي شيء الآن لكني وجدت طريقة لاستعادة تلك الذكريات... ودفعها إلى هذا العالم، عبر الحقل الأثيري المشترك.

وأشار إلى الكأس:

- ذلك الشراب فتح الذاكرة... ليربطكما من جديد بنفسيكما القديمة.

ثم قال بنبرة أهدأ، لكن لا تقل غرابة:

- ستبدأ الأمور تتّضح في دقائق. ستجد الذكريات طريقها إليكما... لم يكن من المفترض أن تُسترجع تلك الذكريات أبدًا. كانت على وشك أن تُمحى نهائيًا... هو القليل من الحظ... نظام التخزين المؤقت في الحقل الأثيري التقط البقايا في اللحظة الأخيرة. لو تأخرتُ أجزاء من الثانية فقط، كانت لتُمحى إلى الأبد.

كانت أفكاري ممزقة. لا أعرف ما الذي أصدقه، أو ما الذي يجب أن أفعله. أردت فقط الهرب من هذا المراهق الذي بدا كأنه يلعب بأموال والده دون رقيب، وقدّم لنا شرابًا مجهولًا، ثم راح يتحدث كأننا في فيلم خيال علمي من الدرجة الثانية.

لكن ما لم أستطع الهروب منه... كان ما يحدث داخلي.

"سيباستيان"... هذا الذي يُقال إنني كنتُه في بعدٍ آخر... أو بالأحرى، ما تبقّى منه. شيء غريب بدأ يحتل كياني. كينونة فكرية، ليست مني، لكنها تشبهني، منسوجة من ذكريات ومشاعر لم أعشها، ومع ذلك... أعرفها.

لم أعد أنا كما كنت. استطعت أن أشعر بسيباستيان يتسلل بهدوء ليستولي على فردانيتي، كأنني تراجعت خطوة وتركته يطل مني، وفقط حينها... أصبح كل شيء واضحًا. كما قال يعقوب.

مسحت كريستينا دموعها، ثم ربطت شعرها إلى الخلف وسألته:

- لكن كيف وجدتنا؟

اقترب منّا بابتسامة عريضة، واضعًا يديه على كتفينا، وقال:

- جدُّ سعيدٍ بعودتكما، سيباستيان... كريستينا... أمامنا كثير لنفعله. علينا أن نجد إيتا أولًا.

سألته حينها، بينما كان يومئ برأسه بحماس:

- لكن... لماذا؟

فأجاب، وعيناه تلمعان:

- من أجل القضاء على يوشيرو.

وفجأة، دَوّى انفجارٌ مباغت على السقف الذي كانوا يقفون تحته، لتتداعى الحجارة ويهبط من الفجوة التي أحدثها الانفجار آلي ذو مظهر بشري، ويقف هناك ساكنًا وسط الركام المتساقط، يكاد لا يُرى بوضوح خلف سُحب الغبار.

الجزء الأول: انتهى